

الحلقة الثانية

الفصل الاول

ظليان "بيت علي" (1)

إرتريا أرض البحر

الجزء الأول : الأطماع

أمين محمد سعيد

نبذة عن المؤلف

* الأمين محمد سعيد، من مواليد عام 1947، بأسرا، إحدى قرى برهانون، هاجر مع أسرته إلى المملكة العربية السعودية عام 1953، حيث درس المرحلة المتوسطة حتى العام 1962 بمدينة جدة عاد في نفس العام مع أسرته إلى أرض الوطن، وحاول مواصلة تعليمه حتى منتصف 1963 في العديد من المدن الإرترية، صوع وأسرا المدرسة الإسلامية، (بمس أبا) مدرسة لأول مكون، في نهاية عام 1963 هاجر مجددا مع أسرته إلى المملكة العربية السعودية، حيث واصل تعليمه بمدينة جدة.

* التحق بجمعية التحرير الإرترية عام 1965، ونعت في ثورة عسكرية إلى الجمهورية العربية السورية، حيث تلقى تدريب عسكري مع العديد من المقاتلين في معسكرات المنيرة، جبل الشيخ - السورية في نهاية عام 1966، عين قائدا طليبا في إحدى فصائل الثورة بقيادة الرتبة في منطقة دمالاس، ومنذ ذلك الوقت المكنر إتحدا في العمليات العسكرية والسياسية للثورة الإرترية.

* منذ 1970 تقى العديد من المواقع القيادية في الثورة الإرترية، حيث انتخب كعضو مكتب سياسي في المؤتمر الأول للجمعية الشعبية لتحرير إرتريا عام 1977، وأعيد انتخابه في المؤتمر الثاني عام 1987 وعمل بعد كأم مسنوقا للعلاقات الخارجية، ثم مسؤولا للإرساد القومي في التنظيم بعد التحرير والاستقلال الوطني، عين وزيراً للأعلام والثقافة حتى العام 1994.

* ترأس وفود الجمعية الشعبية في كافة عمليات التفاوض التي جرت مع نظام الديق.

* اختير أمينا عاما للجمعية الشعبية للتحرير الوطنية والعدالة عند المؤتمر التتالي الثالث عام 1993 وحتى اليوم.

الأمين محمد سعيد

الطبيب، صهان علي

دار عزة للنشر

(1) تعبير كان يطلق لإظهار التودد للإيطاليين

(1)

في نهاية العام 1890م إتحدت مختلف المناطق التي كانت تعرف بإسم "مدري بحري"⁽¹⁾ ضمن اطار جغرافي وسياسي موحد عرفت بإسم ارتريا، لتحظى لاحقا بإعتراف العالم الخارجي بها. وقد كان للتواجد والتمركز الاستعماري الايطالي في هذه الارض، التي تقع بين خطي عرض 12°-18° شمالا، والتي تبلغ مساحتها حوالي 124 ألف كيلومترا مربعا، دورا اساسيا في التكوين والتشكيل الخاصين بها.

ومنذ القدم فان مدري بحري (ارتريا)، وبحكم موقعها الجغرافي المميز كانت معبرا لشعوب عدة، امتزج فيها بينها لتشكل مجتمعا متنوعا و متمازجا من الأقباط النيلية التي استوطنت ضفاف نهري القاش وسيتيت، والأقباط الحامية التي هاجرت من الشمال السوداني، واستوطنت حوض خور بركة والمرتفعات، والأقباط السامية التي عبرت البحر الاحمر من اليمن، واستوطنت المرتفعات. كما كانت مدري بحري (ارتريا) إحدى اهم المنافذ الاستراتيجية التي دخلت منها المسيحية، ثم الاسلام فيما بعد للتغلغل في عموم القارة الافريقية.

وقد تركت كل تلك الهجرات المتعددة بصماتها الواضحة في تشكيل التركيبة السكانية لمدري بحري (ارتريا) التي افرزت في المحصلة النهائية، مجموعات او إثنيات بشرية تتكلم لغات متعددة هي التجرينية، التجري، الساهو، العفر، البلين، الكوناما، النارا، الرشايدة والحدارب. وأخذت تلك المجموعات الإثنية تدين بديانتين اساسيتين هما المسيحية الارثوذكسية التي تتبع الكنيسة القبطية المصرية في طقوسها، مع وجود مجموعات قليلة ممن يعتنقون الكاثولوكية والبروتستانتية. وقسم آخر من تلك المجموعات البشرية اعتنق الاسلام السني على المذهب المالكي أو الشافعي أو الحنفي. بالاضافة الى وجود اقلية تدين بالديانات الروحية.

⁽¹⁾ مدري بحري ومعناها باللغتين التجرينية والتجري "أرض البحر" فمدري تعني الأرض، وبحري تعني البحر.

ان مدري بحري (ارتريا) وبموقعها الجغرافي الثابت الراهن تجاور السودان من الشمال والغرب، واثيوبيا من الجنوب، وجيبوتي من الجنوب الشرقي وحوض البحر الاحمر من الشرق. ويبلغ طول ساحلها على الشاطئ الغربي للبحر الاحمر حوالي 1080 كم. وبه العديد من الخلجان من اكبرهما خليج زولا، وهواكل، وأنفلي، وبرعسولي، وبيلول وخليج عصب، وكلها تقع جنوب ميناء مدينة مصوع.

كما يوجد على طول ساحل مدري بحري (ارتريا) مجموعة من الأرخبيلات مثل ارخبيل دهلك الذي يضم 126 جزيرة، اكبرها جزيرة دهلك، ذات الاهمية الاستراتيجية والاقتصادية، والتي تقدر مساحتها بحوالي 800 كم مربع، تليها من حيث الحجم جزيرة نورا. بالاضافة الى ارخبيل هواكل وبه مجموعة من الجزر لا تقل عن 30 جزيرة اكبرها جزر أم العجوز، وهواكل، ودلها وبكع. وارخبيل أنفلي وبه مجموعة من الجزر ابرزهما جزيرتي هندو وكرييس. واخيرا خليج عصب وبه مجموعة من الجزر من اكبرهما جزيرتي فاطمة وحاليب. ويلتف في اقصى الجنوب بمضيق باب المنذب الشهير.

ويجري بارض مدري بحري (ارتريا) نهرين موسميين هما نهر القاش ويعرف ايضا بنهر مرب الذي ينبع من إباطقرا جنوب غرب أسمرأ، والذي يبلغ طوله حوالي 440 كيلو مترا، ونهر بركة الذي ينبع من مرتفعات حماسين وتحديدا من منطقة حمبرتي، ويبلغ طوله حوالي 430 كيلو مترا. كما بها نهر دائم الجريان ينبع من اثيوبيا يعرف فيها باسم سيتيت، ويعرف في التجراي بتكزي، وعطبرة في السودان، وهو يشكل احد روافد نهر النيل الازرق، ويصل طوله حوالي 120 كيلو مترا.

وقد ادى هذا التنوع السكاني والموقع الجيو- سياسي لمدري بحري (ارتريا) الى خلق اساليب زراعية وتجارية متقدمة، وكيان سياسي متماسك مكن كثيرا من تشكيل مملكة أكسوم في القرن الاول الميلادي، التي فقدت فيما بعد، وتحديدا في

القرن السادس الميلادي، قوتها وذلك بفعل الزحف المتكرر لقبائل البجة الحامية من شرق السودان ومصر. كما شكل ذلك عامل هام لتمازج الاقوام المهاجرة، تمثل في تطوير المنافع المتبادلة بين شعوب البرين الافريقي والعربي. ومن هنا لم يكن من المستغرب ان تزدهر فيها، في الزمن السحيق العديد من المراكز التجارية والحضرية، من ابرزها واكبرها مرفئ عدوليس الاستراتيجي، الذي كان يأخذ بألباب وأفئدة الاغريق، ويشكل مقصدا لتجار مصر واليمن والفرس والهند واليونان. كما اصبح ذلك ايضا، من ناحية اخرى، عامل للفت انظار العديد من القوى الطامحة، التي مارست بحق البلاد وسكانها الكثير من المضايقات والانتهاكات التي كانت في غنى عنها.

وتهطل الامطار في مدري بحري (ارتريا)، في السهول الغربية والمرتفعات في شهري يوليو وأغسطس، ويبلغ متوسط هطولها في المنطقة المذكورة 400-1000 مم، ففي العاصمة اسمرا التي تقع على ارتفاع 2350 مترا عن سطح البحر تصل نسبة هطول الامطار 700-800 ملم، بينما تهطل في منطقة مرارا الواقعة شرق اسمرا 800-1000 مم. بينما في منطقة اغوردات لا تتجاوز 400 مم، وفي كرن 435 مم، وفي تسني 450 مم سنويا. اما الامطار في منطقة السهول الشرقية الساحلية، فانها تهطل في الفترة من اكتوبر الى مارس وتصل نسبتها 90-350 مم. ففي مصوع وضواحيها تصل نسبة هطول الامطار فيها 250 مم، وتنخفض الكمية جنوبا حيث تصل في منطقة عصب 80-100 مم سنويا.

تعاني المناطق السهلية الغربية منها والشرقية في مدري بحري (ارتريا) مثلها مثل العديد من المناطق التي تطل على حوض البحر الاحمر، من قسوة الطبيعة من جفاف، وحرارة عالية تصل في فصل الصيف في المناطق السهلية الشرقية الواسعة التي تطل مباشرة على الشاطئ الغربي للبحر الاحمر، وكذلك في المناطق السهلية الغربية التي تتراوح ارتفاعاتها بين 200-1000 متر عن مستوى سطح

البحر، الى اكثر من 40 درجة مئوية يصاب فيها الناس بما تعارفوا عليه، بضربات الشمس الحادة، في شهري يوليو واغسطس، ترافقها رطوبة عالية تصل الى معدل لا يطاق. ومن اجل درء حرارة الطقس فيها، وتقادي رياح الخماسين المشهورة، فان معظم منازلها، ودور العبادة فيها، كانت تبني من الخيم المصنوعة من وبر الماعز، وفي اغلب الاحيان من حصير سعف شجر الدوم، المنتشر بكثرة في المنطقة. والبعض الآخر من السكان، خاصة الميسورين منهم، فقد كانوا يصنعون منازلهم من اللبن الذي تجلبه سيول المرتفعات الجبلية المحيطة بالمنطقة بعد خلطه ببعض روث البهائم، والحشائش، وفضلات الذرة الرفيعة لمزارع المنطقة.

اما المناطق المرتفعة فهي عبارة عن هضبة وسطى تشكل 20% من مساحة مدري بحري (ارتريا)، يبلغ متوسط ارتفاعها سبعة الف قدم عن سطح البحر، وبها اعلى جبل، وهو جبل سوبرا القريب من مدينة صنعفي، ويبلغ ارتفاعه حوالي عشرة ألف قدم عن سطح البحر. ومعدل هطول الامطار في المرتفعات هو 400 مم، ولا يتجاوز في احسن حالات موسم الخريف فيها عن 900 مم في السنة. والطقس في هذه المنطقة معتدلا بصورة اجمالية، ويقصدها من يريد تخفيف وطأة صيف المناطق السهلية. اما سكانها فهم ومن اجل اتقاء برودة الطقس التي تصل الى درجة التجمد في اشهر الشتاء الذي يبدأ من أكتوبر لينتهي في يناير، ومن اجل تقادي الرياح العاتية التي تشق الشفاه وتقشر الجلد، فانهم وغالبا ما كانوا يبنون منازلهم واماكن عباداتهم من الحجر الجيري المسقوف بجذوع واغصان شجر الصنوبر واشجار البان، ويغطي بطبقة من تراب وحجارة الاودية. وتنتشر فيها المروج الخضراء، وتمرح فيها العديد من فصائل الغزلان، وقطعان النعام والخنازير البرية، واصناف متعددة من الدجاج البري مما يضيف على جوها العام نوع من

السعادة الغامرة، ويتمنى المرء فيها ان تكون كل اشهر البلاد ربيعية دائمة. الى درجة كان يحلوا للكثيرين من السكان وصف منطقتهم بأرض الربيع الدائم. وقد اعتمد معظم سكان مدري بحري (ارتريا) ، على الزراعة المطرية ورعي البهائم، وكانوا يزرعون العديد من المحاصيل ومن اشهرها الذرة الرفيعة التي يطلقون عليها الماشيلا، والبقوليات ومن ضمنها الفول والعدس ويريون المواشي من ابقار، وماعز، واغنام وابل، ويستفيدون من منتجاتها. وكانوا يعيشون في مجموعات خاصة بهم، وكانت شؤونهم الحياتية تدار عبر من ينتخبونهم من الشخصيات المرموقة من زعماء القبائل او رجال الدين. وكان ترابطهم الاجتماعي يستند على اسس واعراف قبائلية، وفي بعض المناطق يستند على مفاهيم قروية خاصة في المرتفعات، لتأخذ فاعليتها عبر الترابط الاسري والعائلي.

ولسوء قدر سكان البلاد فقد تحول الموقع الفريد لارض مدري بحري (ارتريا)، الى وبال على اصحابه. فمنذ بداية القرن الخامس عشر اصبح محط انظار واطماع العديد من القوى الاستعمارية القديمة منها، مثل البرتغاليين والفرس واليونانيين، او الجديدة منها، مثل الايطاليين، والبريطانيين والفرنسيين التي ظهرت على انقاض الامبراطوريات القديمة. ففي الغرب ظهرت اطماع مملكة سنار السودانية في القرن الخامس عشر وذلك بهدف بسط سيطرتها ونفوذها على مناطق احواض الانهر. ومن الجنوب حاول اقطاعيو منطقة التجري العمل على بسط نفوذهم على مرتفعات البلاد بهدف السيطرة على الشاطئ الغربي للبحر الاحمر والاستيلاء على موانئه.

وكان الواقع السياسي العام في ارض مدري بحري (ارتريا)، قبل ان تطأها اقدام الايطاليين في العام 1869م مثله مثل الواقع السياسي العام للعديد من البلدان الافريقية، يتسم بالاضطراب وعدم الاستقرار. فقد كان واقع البلاد منقسما ومشتتا في وحدات اجتماعية صغيرة مجزئة طغت عليها عوامل التخلف والنعرات القبائلية

والفئوية. ولم يكن وسط تلك المجموعات المجزئة، بفعل عوامل التخلف، اي وعي سياسي يمكن من خلق وحدة فعلية متماسكة سواء داخل تلك المجموعات، او بين بعضها البعض. فقد كانت نزعة التفرقة المستندة على عاملي الثأر والنعرة العصبية هما اللذين يشكلان التهديد المباشر بكياناتها المتعددة والمختلفة. ولم تتخلص المنطقة من شتاتها وتتحول الى كيان موحد، يسير باتجاه التمازج السياسي العام والموحد والمعترف به، إلا بفعل التدخل الاستعماري الايطالي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

(2)

قرية الشيخ حليب، هي احدى قرى ارض مدري بحري (ارتريا) التي لا تبعد عن مدينة مصوع الساحلية سوى بضع كيلومترات. وهي بطبيعتها منطقة جافة تتراوح فيها درجة حرارة الطقس من 27-45 درجة مئوية على امتداد العام. بالاضافة الى انتشار الرطوبة الزائدة فيها والتي تعكر مزاج زائرها الى درجة الاحساس بالاختناق خاصة في فصيل الصيف. ولا يتحسن طقسها إلا في فصل الخريف الذي يشكل نعمة كبيرة لسكان القرية، وعموم المنطقة. اذ يكون الطقس في مثل هذا الموسم الذي يبدأ عادة من نوفمبر ويستمر في احسن الحالات حتى شهر مارس معتدلاً، جاذبا حبات المطر للهطول، وري سهول القرية. مما تكون النتيجة خيرا وفيرا على المواطنين خاصة الاطفال منهم الذين ينعمون ويستمتعون بالكميات الوفيرة من لحوم المواشى ومشتقات الالبان التي تمتلكها اسرهم. اما كبارهم فانهم يستعدون لمثل هذا الموسم وهم متفائلين، ويتفاكرون في كيفية تزويج ابنائهم، وكيفية القيام باجراء مراسيم الختان لصغارهم.

لم يكن تعداد سكان القرية يتجاوز في احس الحالات، البضع مئات من الافراد، وكانوا يعيشون على شكل اسر صغيرة لا يتجاوز اعداد كل منها على الخمسة او الستة افراد. بسطاء في كل شئ، في ملابسهم الذي عادة ما يكون ناصع البياض لا يتعدى القميص الذي يغطي كامل الجسم، ويعرف "بالقميص العربي"، وهو رداء شبيه في تفصيله بما يستخدمه اهل السودان، بالاضافة الى سروال فضفاض طويل، مع طاقة بسيطة تغطي الرأس. وفي بعض الاحيان يستخدم الميسورون من اهل القرية بالاضافة الى القميص والسروال، جبة بيضاء وعمامة دائرية شبيهة بتلك التي يستخدمها اهل الهند والباكستان. وتستخدم النساء غالبا الفوط المزركشة التي تغطي القسم السفلي من الجسم، بالاضافة الى الـ "مفتحت" وهي عبارة عن قطعة قماش مزركشة وكثيرة الازرار، تغطي منتصف الجسم العلوي، بالاضافة الى

لحاف مزركش يلف او يغطي الرأس بشكل بديع ومتناسق. كما انهم بسطاء في طعامهم، اذ انهم لا يفرطون في الاكل ربما للحكمة التي يتداولونها والقائلة "لاناكل حتى نشبع"، او ربما لضيق الحال. ولا يتجاوز طعامهم العصيدة المصنوعة من حبوب الماشيلا، مع قليل من اللبن، واذا تيسر الحال يتناولونها مع قليل من السمن البلدي. كما انهم كانوا يستخدمون خبز "التدور" المحلي المصنوع ايضا من حبوب الماشيلا او الدخن والذي يعرف بالـ "حبزة".

وقد اشتهر سكان قرية الشيخ حليب بالتواضع، فهم لم يكونوا يتذمرون من حرارة الطقس، ولا من معاناة الحياة. وكانوا يسعون قدر المستطاع الى التأقلم مع اوضاعهم، ويتعاونون مع بعضهم البعض في السراء والضراء. ويحترمون ضيوفهم، بل يتبارون في تقديم افضل واعز مايملكون لضيوفهم من مأكـل ومشرب، ويتسابقون في اظهار المودة لهم. وكانوا يعتمدون في ارزاقهم بصفة اساسية على ماكانت تجود به مدينة مصوع من اعمال، وهي التي كانت بمثابة المنفذ بل المنقذ الوحيد لهم، بالاضافة الى مزاولة الرعى، ونسبة قليلة منهم كانت تعتمد على الزراعة المطرية في بعض ضفاف مجاري السيول. وكانت منازلهم شبيهة بمنازل القرى الاخرى، ويصنعونها من اللبن ويسقفونها بجذوع اشجار الدوم والحشائش البرية المنتشرة في المنطقة. اما ميسورو الحال منهم فانهم كانوا يعتمدون على الحجارة التي توفرها لهم الهضاب المحيطة بالمنطقة، لصنع منازلهم التي تأخذ عادة شكلا مربعا، ويسقفونها بألواح الزنك القادمة من بلدان ماوراء البحار.

ومنذ مئات السنين سكنت القرية اسرة متواضعة ذات سمعة عالية، كانت تعرف بإسم أسرة صالح جابر، التي تتحدر من احدى القبائل التي تعيش في احدى الهضاب الجنوبية المطلة على المنطقة. وقد رزقت تلك الاسرة بطفل اطلقت عليه إسم محمد تيمنا بالجد الاكبر للأسرة. وقد كبر محمد وترعرع يتيما في حضن خاله

موسى عبد القادر بعد وفاة والده وهو في عامه الثالث. وقد احسن خاله في تربيته، ودفعه وشجعه لإكمال تعليمه الديني الذي لم يكن يتجاوز تدريس وتحفيظ القرآن الكريم، وبعض الاحاديث النبوية الشريفة، وترتيل المدائح النبوية، وذلك على يد الشيخ عمر محمود الذي قدم من منطقة غرب ارض مدري بحري (ارتريا)، وكان يعتبر احد مشائخ قرية الشيخ حليب. وقد حظي جهد موسى علي بالعرفان والتقدير من قبل افراد الاسرة. بالاضافة الى ذلك لم يكن موسى علي يفرق بين ابن شقيقته وابنائها. فكان يوفر للطفل حتى وصل الى سن الرشد كل ماكان يوفره لأبنائه من مأكّل ومشرب وملبس. بل كان يببالغ في حبه وحنانه إلا درجة ان خصص له بعض من المواشي التي كان يملكها ليستفيد من البانها، ولتصبح له احتياطي مقدر فيما لو سمح الله للأيام الخوالي بالهيمنة على محمد وما اكثرها بالنسبة للقرية وابنائها. ولم يستقر البال به حتى زوجه احدى اصغر بناته، السيدة ملوك عبدالقادر، التي كان محمد يكبرها بحوالي سبعة سنوات. ليكون الطريق امام محمد شاقا وطويلا ترتبت عليه التزامات تجاه الاسرة وتجاه القرية وابنائها.

إستمدت القرية اسمها من اسم الشيخ عمر حليب الذي سكن موقع القرية. وكان السكان ومنذ زمن بعيد يتحدثون عن كيفية مجيئ الشيخ الى قريتهم، والاعمال التي كان يقوم بها بصورة خرافية تمتزج فيها العديد من الاعتقادات الدينية والاساطير الخرافية. وكان الشيخ محمد صالح جابر عادة ما يتبادل اطراف الحديث مع زوجته السيدة ملوك عبدالقادر. وفي احدى الامسيات تحدث لها عن الكيفية التي اتى بها الشيخ عمر حليب الى قريتهم قائلاً:-

- في الفترة التي وطأت فيها اقدام الاتراك هذه الارض، اتى الى قريتنا احد المشائخ، قادما من الاراضي الواقعة وراء البحر التي احتضنت العديد من الانبياء والرسل. وكان يدعوا آباءنا بالموعظة الحسنة، والارشاد الى اتباع

الصراط المستقيم، والى عبادة الواحد الاحد الذي لاشريك له. وقد كان شيخا ورعا تقيا، كريما لطيف المعشر، ولم يكن له ابناء او اي التزامات أسرية عندما اتى الينا. وكان يعتمد في سد احتياجاته المعيشية وبعض مطالبه الدنيوية من خلال ما يوجد به زواره الكثر الطالبين للشفاء والبراءة من الامراض التي يعانون منها.

واضاف بعد ان احس بانسجام زوجته:-

- كان الشيخ يقوم بمعالجة سكان قريتنا، والقرى المجاورة لها ببعض الاحبة التي تحتوى على بعض الآيات القرآنية، وبعض ادعية مشائخ الصوفية، وفي بعض الاحيان كان يستخدم الكي بالنار لمعالجة الامراض التي كان يعتقد بانها مستعصية. بالاضافة الى ذلك كان يعلم ابناء القرية تلاوة القرآن الكريم، وبعض الاحاديث النبوية، مقابل بعض الهدايا التي تقدم من قبل اولياء الامور والتي عادة ما كانت تتضمن بعض الليرات التركية، او بعض رؤوس الاغنام، او القليل من الحبوب الغذائية.

كبر محمد بل بدأت علامات الرشد والحكمة تظهر عليه، مثل حب فعل الخير، وبشكل خاص للمحتاجين، واحترام كبار القوم من السكان. وكان مثل ابيه مديد القامة، خلوقا كريما، مليح الملبس وطيب المعشر. وسرعان ما بدأ يحظى باحترام اهل المنطقة، ليصبح وهو لم يتجاوز العقد الرابع من عمره، احد اعيان ومشائخ تلك القرية والعارفين بامورها. وقد اهله ذلك في الحصول على قبول ورضى مواطني تلك القرية التي لم يكن يتجاوز عدد افرادها بضع مئات من الاسر التي تعيش على ما تجود به الطبيعة القاسية من محاصيل زراعية شحيحة، وعلى ماتوفره لهم مواشيه المنتشرة على طول امتداد شاطئ البحر الاحمر لارض مدري بحري (ارتريا)، من مشتقات الالبان، واللحوم والجلود.

لقد كان الشيخ محمد مؤهلا بما كان يتمتع به من احترام وتقدير، من حل خلافات اهل المنطقة مثل قضايا المنازعات على الارض، والمرعى وآبار المياه، وقضايا عقد القران والطلاق والميراث. وكان يوفر لقمة عيش كريمة له ولاسرتة المكونة من زوجته السيدة ملوك عبدالقادر وولديه ادريس واحمد من مهنة النجارة التي كان يجيدها باتقان، بالاضافة الى ما يتحصل عليه من عائد بيع بعض مواشيه خاصة في فصل الخريف.

لم يكن الشيخ محمد صالح جابر يتمتع بمكانة خاصة بين ابناء القرية وحسب، بل كان واسع الإدراك والإطلاع بمخاطر ما يمكن ان يحيط بقريته، وبارض مدري بحري (ارتريا) من تكالب وصراع القوى الامبراطورية الجديدة التي بدأت بالظهور على انقاض الامبراطوريات القديمة من برتغاليين واتراك، والمتمثلة بقوى الاستعمار الراسمالية من بريطانية، وفرنسية وايطالية والتي كانت تهدف الى الحصول على الايدي العاملة الرخيصة من ابناء المنطقة، وضمان تدفق المواد الاولية التي تدخل في صلب صناعاتها الراسمالية، والحصول اوالسيطرة على الاسواق التي تمكن من تفريغ منتجاتها الصناعية. بالاضافة الى ما تمثله تلك القوى الامبريالية الحديثة التي كانت تندفع بفعل تأثيرات اوضاعها الداخلية من عوامل الاعتقاد بالتفوق العرقي، والثقافي والحضاري، من عامل تدمير لكل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية لسكان القرية وعموم ارض مدري بحري (ارتريا).

لقد كان ادراك ووعي الشيخ مختصرا فقط، بل منصبا في ادراك خطورة ما يحدث من نزاع بين ابناء قريته من ناحية، وبين ابناء قريته والقرى الاخرى المنتشرة على امتداد منطقة السهول والمرتفعات من ناحية اخرى. تلك النزاعات التي كانت تكلف كل قبائل المنطقة الكثير من جهدها، ومالها، وحتى وجودها ايضا، دون ان تكون هناك اي نتائج لهذا الطرف او ذلك، مهما كان فيها الغلبة لطرف من الاطراف المتصارعة. ومن هذا الفهم كان الشيخ يتحدث في المناسبات الموسمية، مثل

مناسبات الاعياد الدينية، او مناسبات الافراح او الاتراح التي كان يشترك ويجمع فيها مواطنو القرية وبحثهم على:-

- إن من الضرورة الابتعاد عن المكائدات والمشاحنات التي لا طائل منها، وتحكيم العقل من اجل تحقيق المصالح المشتركة.

الا ان جهد الشيخ محمد لم يكن يكلل بالنجاح في كثير من الاحيان. بل كانت المنازعات والمشاحنات تتدلع ولأتفه الاسباب بين الحين والاخرى بين افراد مجتمعه الصغير، والتي تكون في كثير من الاحيان ذات نتائج مدمرة يدفع ضربيتها فقراء ومعدومي اهل القرية.

لم تكن احوال مواطني قرية الشيخ حليب بأحسن حالا من مواطني القرى المجاورة مثل قرية ود زبير وقرية حللو. فهم كانوا يعيشون اوضاع جد مضطربة، فبجانب الفقر والعوز كانوا يعانون من جبروت وغطرسة حكام الاتراك وموظفيهم من المصريين ومن المتعاونين معهم من ابناء قبائل القرى. فقد كانت الاتاوات ومختلف انواع الضرائب ترهق كاهلهم. وكانوا يعانون اكثر في سنوات الجفاف التي تضرب منطقتهم، فهم ووفقا لقانون الاتاوات ومختلف انواع الضرائب التي كان يفرضها الحكام الاتراك، ومن بعدهم الحكام المصريين كان عليهم تقديم خمس مايملكونه كسداد للمستحقات المفروضة عليهم في نهاية كل عام، دون اظهار اي امتعاض او عدم القبول. ولتحقيق ما يفرض عليهم كانوا يقومون بتقديم ماطلب منهم نقدا بالليلرات التركية، وذلك عبر بيع جزء من ماشيتهم او محاصيلهم الزراعية، وهذا ماكان يفضله الاتراك ويشجعونه. واذا تعذر عليهم ذلك لسبب او آخر، كانوا يضطرون لإستقطاع جزء من الماشية وتسليمها لجامعي الضرائب. واذا لم يتمكنوا من تحقيق هذا او ذاك فان مصير الواحد منهم يكون فرض اقصى العقوبات عليه، والتي تبدأ من احتجاز او اعتقال الشخص وهو مقيد اليدين ومعصوب العينين في احد اسطبلات الحمير التي عادة ما كان يملكها احد امراء

او قادة الجيش التركي لعدة ايام قد تصل الى اكثر من اسبوع، معرضا طيلة النهار لضربات الشمس الحارقة والمحركة، او التعرض في الليل للساعات عقارب قرية الشيخ حليب التي قضى كثيرا من المحتجزين نحبه فيها ، او مصادرة ما يمتلكه من بهائم وارض زراعية. اما من يتمكن اهله من تسديد ما يستحق عليه ويخرج حيا فهو المحظوظ، والذي عادة ما يوصف بانه:-

- كان يحظى برضى ودعوات الوالدين.

وقد كان المواطنون يكرهون مثل هذه الممارسات المرعبة، ويصفونها "بأحكام قرقوش التركية".

لقد كان مواطنو قرية الشيخ حليب ومنذ مجيئ الاتراك الى منطقتهم في العام 1557م وانتشارهم في كافة المناطق المحيطة بهم والمجاورة لهم البعيدة منها والقريبة، يدفعون ما يطلب منهم من أتوات وهم صاغرون، دون ان تكون لهم الحيلة او القوة في رفض ما يطلب منهم. وذلك للعديد من الاسباب، اولها الخوف من بطش الجنود البوسنيين وهم الذين كانوا يشكلون عماد الجيش التركي، والذين كانوا يشتهرون بالقسوة والغلظة. وثانيا لإيمانهم بان من الضرورة وفقا لمعتقداتهم الدينية، بان من واجب المؤمن بالله اطاعة ولي الامر. وثالثا لاعتقادهم بان دفع ما يترتب عليهم من مستحقات سوف يدفع الاتراك للدفاع عنهم في حالة تعرضهم لغزوات وهجمات القبائل البعيدة منهم، خاصة تلك التي كانت تتطلق من منطقة التجراي المجاورة.

لقد كان سكان قرية الشيخ حليب، وكل القرى الواقعة تحت سيطرة الحكم العثماني راضين بما آلت اليه اقدارهم. وقد كان الشيخ محمد صالح جابر احدهم، اذ كان يحلو له كثيرا ان يردد امام اتباعه وابنائهم بعض من مقولات مشائخ الصوفية - القادرية الذين كانوا منتشرين في المنطقة، مثل:-

- ان المرأ لا يمكن ان يهرب مما كتب عليه في اللوح المحفوظ، وان الانسان ليس بمخير لفعل مايريده، بل هو مسير لما اراده له الله، وعليه ان يقبل حكمة المولى عز وجل.

لم يكن الشيخ يهتم كثيرا بما كان يفرض عليه وعلى ابناء قريته من ضرائب وأتاوات، اذ كان يعتقد بان من مصلحة ابناء القرية دفع ما يطلب منهم إلا ان يجعل الله لهم مخرجا من جبروت وسطوة الاتراك. وان ماكان يهتم به بل يخشاه هو ان لا تقسوا الطبيعة عليه وعلى ابناء جلدته وتصيبه بموجة من الجفاف تضرب عموم المنطقة. وقد كان في كثير من الاحيان يبوح بما يقلقه امام معارفه والاقربون منه قائلا:-

- ان الذي يجب ان نخشاه هو الجفاف، وليس مايفرض علينا من قبل الاتراك، لان الجفاف لا يبقى لنا شئ نعتمد عليه، فهو يأكل كل ما نملكه من اخضر ويابس، ويأتي على كل شئ. انه وحش يمكن ان يختطف ابناءنا ونساءنا، وحتى شبابنا. ويتركنا عاجزين تماما من تلبية مطالب أولئك الاتراك الذين فرضوا علينا انفسهم، مما يعرضنا في النهاية الى ان نعيش تحت جبروتهم وكيدهم.

لم يكن الجفاف فقط هو ما كان يخشاه الشيخ محمد صالح جابر وابناء قريته، بل كان هناك ايضا عامل آخر كان يسبب الهلع والفرع لدى سكان القرية. الا وهو موجة اختطاف الاطفال التي كانت موجة ذلك العصر، وبشكل خاص اختطاف الفتيات خاصة صغار السن منهن. ولم تكن ظاهرة الاختطاف تلك باقل خطورة من موجة الجفاف، ان لم تكن اكثر في نفسية وادراك اهالي القرية واهالي ارض مدري بحري.

ففي العهد التركي العثماني ظهرت العديد من العصابات البعض منها موجه من قبل الحكام الاتراك، والبعض الآخر من بعض زعماء قبائل الجزيرة العربية.

وكانت مهمة تلك العصابات اختطاف صغار السن من الشباب، والفتيات الصغيرات، بهدف بيعهم كرقيق في سوق النخاسة في كل من اسطنبول ومناطق شبه الجزيرة العربية، ليتمكن حكام الاتراك وكبار التجار من اتراك وعرب من استخدام أولئك المغلوبين على امرهم من المختطفين كعبيد في المزارع والمنازل، او كأدوات لكل من يرغب في التمتع بممارسة الجنس المباح منه والغير مباح.

لقد كان الشيخ محمد يحذر قومه ويقول في كل المناسبات:-

- احذروا الليل فهو انسب الاوقات لاختطاف فلذات اكبادكم، ونسائكم.

وهذا ما كان يدفع باهالي قرية الشيخ حليب لترتيب وتنظيم اوضاعهم خاصة في الليل، اذ كانوا يقومون وبالتناوب بحراسة مداخل ومخارج القرية، ومراقبة تحركات الجنود البوسنيين الذين كانوا يجوبون ازقة القرية بحثا عن الاماكن التي يمكن ان يفرغوا بها شحناتهم العاطفية والجنسية، بالاضافة الى القيام بالتأكد من شخصيات ابناء القرى الاخرى الذين يفضلون المبيت عند بعض اقاربهم من مواطني قرية الشيخ حليب، ريثما ينبلج الفجر للتوجه الى الاسواق لشراء اوبيع حاجياتهم من اللبن والعسل، او السمن البلدي المعروف بالسمن الحبابي، او بعض من قطعان مواشيهم.

لم يكن مواطنو قرية الشيخ حليب ونظراؤهم من المواطنين المجاورين او البعيدين عنهم، خاصة أولئك القاطنين في المناطق الجبلية ومنحدراتها، يرتاحون للبحر. فهو في نظرهم كان يشكل المجهول الذي لا يؤتمن. ويرفضون بكبرياء غريب، على الرغم من حالة فقرهم ويؤسهم، تناول اي شئ مستخرج منه بما فيه السمك، ولا يسعون للسباحة فيه، ويتقادون ما استطاعوا مجاورته. فالبحر بالنسبة للعديد من أولئك المواطنين وحسب وصفهم له لم يكن سوى:-

- المكان الذي تخرج منه المصائب. فهو يحمل على ظهره قوى الكفر وهم يمتطون سفنهم التي ترتعد منها الابدان.

الا ان شيخ القرية وزعيمها الشيخ محمد صالح جابر كان على النقيض منهم فهو كان يقول وبكل تباهي ، خاصة لصديق عمره الشيخ زبوي عمريت:-

- البحر هو توأم اليابسة التي نعيش على ظهرها. وهو الذي يجلب الامطار كما الاشجار، ويحث الرياح لتخفيف حدة الرطوبة من على شقيقته الارض. وغالبا ما تسمع ضحكته المعهودة كاستهزاء بالبعض من اصدقائه عندما يسمعون وهم يشتمون ويلعنون البحر. ولا يتورع من السخرية من اقرانه الشامتين وهو يقول لهم بصورة مليئة بالصدق واليقين:-

- الماء حتى ولو كان بحرا مالحا هو أساس الحياة.

ومن غرائب سكان القرية هو انهم لم يكونوا يتناولون باي شكل من الاشكال لحوم الطيور بما فيها الدجاج، والحيوانات البرية مثل الغزلان والارانب والثيران الوحشية، ويعتقدون بان مثل هذه الحيوانات لم تخلق إلا من اجل ان يتناولها الاتراك ونظائورهم والفرنجة الكفرة، وقطاع الطرق. وقد كان الشيخ يحل اكل لحوم هذه الحيوانات في حالة المجاعة وعندما تصاب المنطقة بالجفاف، وتتفق البهائم. وما عدى ذلك فانه كان يتفق مع مواطني القرية في عدم استصاغة اكل لحوم تلك الحيوانات.

وعلى الرغم من كل عوامل القسوة تلك كانت الحياة في قرية الشيخ حليب والقرى المجاورة لها تسير بوتيرتها المعهودة. وكان الناس يمارسون حياتهم العادية، من دفع الضرائب للاتراك، والقيام بالنفير الجماعي لصد مجموعة من الغزاة المندفعين من منطقة التجراي المجاورة، او ايقاف محاولات تغلغل اتباع المهديّة خاصة في غرب ارض مدري بحري (ارتريا)، وحراسة القرى من اللصوص ومختطفي الاطفال، والقيام بمتطلبات التجهيز لحرث الارض في مواسم الامطار، وممارسة الشعائر الاخرى مثل الزواج، ومهرجانات الرقص حتى الصباح في الليالي المقمرة التي يقيمها الشباب من الجنسين.

لم يكن اهالي قرية الشيخ حليب على علم بما كان يخطط لمصيرهم ومصير منطقتهم. وان ماكانوا يعرفونه عن الايطاليين او الفرنجة بصورة عامة، حسب تسميتهم المفضلة لكل من له سحنة بيضاء، لم يكن يتجاوز بعض الانطباعات التي كان يسردها لهم اباؤهم او اجدادهم عن المبشرين البروتستانت والكاثوليك، وما كانوا يقومون به من دور في منطقتهم. وعندما يأتي حديث كبار السن من مواطني القرية عن المبشرين، خاصة الشيخ محمد صالح جابر الذي كان يتحدث بثقة تامة وهو يحكي لزوجته السيدة ملوك عبدالقادر قائلاً:-

- كان يأتي الينا وفي فترات متقطعة بعض الرجال من ذوي البشرة البيضاء الذين يرتدون الجلابيب النظيفة، ويحملون على صدورهم صلبان لامعة. وتشع من وجوههم التقوى والرحمة والتواضع. وكانوا يقدمون لنا السكر والدقيق، وبعض الملابس مقابل ارشادهم على الطريق الذي يؤدي الى المرتفعات. وكان البعض من أولئك المبشرين يفضلون المكوث في قريتنا لبعض الوقت خاصة في موسم الامطار التي تنخفض فيها حرارة الطقس بشكل ملحوظ، بهدف مساعدتنا.

وغالبا ماكانت السيدة ملوك تتذكر ماكان يرويه والدها عبدالقادر بعل خير عن الفرنجة وهي تقول:-

- سمعت والدي يقول لخالي عمر طروم، بالرغم من ان المبشرين كانوا اصحاب رسالة سماوية، ويبشرون بسيدنا المسيح عليه السلام، الا انهم كانوا يفضلون المسيحية على الاسلام، ويحثون الناس على اتباع تعاليم المسيح، ويستفسرون عن السر في عدم وجود مؤمنين مسيحيين في منطقتنا.

(3)

ادرك الايطاليون مبكرا، خاصة بعد ان تمكنوا من توحيد اقاليمهم الجغرافية التي كانت متنافرة ومقسمة، وتكوين دولتهم الحديثة والموحدة في غرب أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر، بان تحقيق مصالحهم السياسية والتجارية، وبسط نفوذهم لا يمكن ان يتحقق إلا عبر التأكيد على تواجدهم الفاعل في البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر. وانطلاقا من هذا الادراك كانت عيونهم وآذانهم موجهة، عبر المبشرين الايطاليين، نحو اراضي مدري بحري (ارتريا) وقراها التي كانت تعيش هي والعديد من القرى، اقدارها تحت ظل الاحتلال العثماني. كما ان الايطاليين وبفضل التقارير التي كان يزودهم بها المبشرون اتباع الكنيسة الكاثوليكية الايطالية، كانوا يدركون مدى الضعف والهوان الذي اعترى واصاب التواجد العثماني التركي في تلك المنطقة.

ففي الفترة التي كان فيها الايطاليون يخططون لتأكيد تفوقهم وسيطرتهم على البحر الاحمر، وصل التواجد العثماني في تلك المنطقة الذي استمر لحوالي ثلاثمائة عام الى ادنى مستوى من الانحطاط والتدهور. وبدأ عامل خوف اهالي منطقة الشيخ محمد من الجبروت التركي بالتصاعد، ولم يعد الناس يكثرثون، وسرعان ما بدأوا بالتكؤ ثم الامتناع عن دفع الضرائب المستحقة عليهم، ووصل الامر بالعديد من القرى خاصة النائية منها بإعلان التمرد والعصيان على الحكام الاتراك وممثليهم من المصريين، بل الاشتباك المسلح بهم ووضع الكمائن لجندهم. وبدأ الوضع بشكله العام يخرج عن نطاق سيطرة الاتراك. وقد شجع هذا الوضع الطليان للتحرك، وبدأ المبشرون يتحولون من التبشير بالانجيل وبالمسيحية على الطريقة الكاثوليكية الى التبشير بيوم جديد تحت ظل "الدولة الايطالية الحديثة، ذات الحضارة الاوروبية"، والعمل على تمهيد الارضية للقيام بعملية واسعة تمكن من

تحقيق الرغبة الايطالية في السيطرة على منطقة مدري بحري (ارتريا)، تمهيدا للسيطرة على حوض البحر الاحمر ومنطقة القرن الافريقي.

استغل الايطاليون الاوضاع المتدهورة للتواجد العثماني التركي في مدري بحري، ليتمكنوا في الخامس عشر من ديسمبر 1869م ولأول مرة وعبر المبشر الايطالي جوسبي سابيتو من شراء جزء من قطعة ارض بالقرب من منطقة عصب. وبذلك تمكنوا من الحصول على موطن قدم لهم كانوا في امس الحاجة اليه، في الساحل الغربي للبحر الاحمر.

بعد ذلك وبعد اثني عشر عاما اي في مارس من عام 1882م اشترت الحكومة الايطالية قطعة الارض التي كانت تابعة للمبشر الايطالي جوسبي سابيتو بحوالي 417 ألف ليرة. ووافق البرلمان الايطالي في الخامس من اغسطس 1882م على صفقة الشراء التي تمت بين الحكومة الايطالية والمبشر جوسبي. واعلن في نفس اليوم عن تأسيس ايطاليا "لمستعمرة عصب"، كنواة لخلق مستعمرة كبرى عرفت فيما بعد "بمستعمرة إرتريا الايطالية".

وبينما يعيش مواطنو قرية الشيخ حليب وبقية القرى الاخرى الحياة الخاصة بهم، بدأت الاشاعات والاقاويل تنتشر بسرعة مذهلة حول وجود بعض الفرنجة الذين يجوبون البحار، تمهيدا للنزول الى اليابسة. وبدأ الكل يعيش حالة من الخوف على ما يمكن ان تخبئه له الاقدار. وبينما اهل القرية يعيشون خوفهم تمكنت القوات البحرية الايطالية في الـ 25 من يناير 1885م من السيطرة على منطقة بيلول الساحلية. وبعد اقل من شهر اي في الخامس من فبراير 1885م تمكنت قوات الادميرال الايطالي كويمي من النزول الي ميناء مصوع والسيطرة عليه.

وانتشر خبر وصول الايطاليين الى مصوع بصورة سريعة لتعم سكان القرية وكافة القرى المجاورة البعيدة منها والقريبة حالة من الخوف. وبدأ اعوان وزبانية الحاكم المصري في مصوع عزت بيك الذي عينه الاتراك، الظهور بمظهر الحاديين على

مصير مواطني القرية والمدافعين عنها، وأخذوا يحثون المواطنين بالالتزام والتمسك بعهدهم "لولي امرهم خليفة المسلمين وامامهم في اسطنبول". ونشطوا من اجل بث الكراهية في نفوس المواطنين بالادعاء بان "الكفرة، والمعادين للاسلام والمسلمين من النصارى الايطاليين يرتكبون المجازر بحق المسلمين في مناطق العفر، ويغتصبون النساء، ويختطفون صغار السن على امل تحويلهم الى خدم او رقيق لنساء الطليان".

وبدأت حيلة الحكام تنطلى على بعض المواطنين من قرية الشيخ حليب، ليؤدي ذلك بدوره الى انقسام القوم الى فريقين فريق يطالب بالرحيل من القرية والتوجه شمالا وغربا الى مناطق المرتفعات هربا من "الكفرة الايطاليين" وما يحملونه من بطش وكراهية تجاه سكان المنطقة. وقسم آخر ومن بينهم الشيخ محمد صالح فضلوا المكوث في قريتهم وانتظار ما يخبئه لهم القدر. وذات يوم وبينما القوم يمضون يومهم وجزء من ليلهم في جدل عنيف، ارتسمت فيه امارات الشدة واللين بين مؤيد ورافض للبقاء في القرية، اذ سمعوا مناديا يقول:-

- اننا سوف لن نبارح ارض آبائنا واجدادنا. وسوف لن نترك بهائمنا لتكون غنيمة للطليان. ان من الافضل لنا المكثوث في ديارنا، والدفاع عن نساءنا واطفالنا، وكرامتنا. وان نقتل في ارضنا دفاعا عن عرضنا وكرامتنا، بدلا من الفرار مذعورين بانسين لنتحول الى اضحوكة للقبائل التي تحيط بنا.

ولم يكن لسكان القرية الذين كانوا يواصلون نقاشاتهم وهم متحلقون في ساحة ميدان القرية، وهو المكان الذي مايرحوا يعقدون فيه اجتماعاتهم لمناقشة القضايا والمسائل التي تهمهم وتهم قريتهم، سوى الإلتفات للمصدر الذي كان ينبعث منه الصوت. مكتشفين بان المنادي لم يكن سوى شيخهم الوقور، الشيخ محمد صالح جابر الذي كان منتصبا شامخا امامهم وبرفقتة بعض شباب القرية وهم يلوحون بسيوفهم ورماحهم. وقد وقع هذا النداء على نفوس القوم موقع الطمئينة، ليتحول

الجمع المرتبك الى واحة من الهدوء والسكينة. وليتجاوب الكل مع نداء شيخهم، وتزغرد النسوة فرحا وابتهاالا بالمكوث في ارض الآباء والاجداد، ولترتفع حناجر الرجال ملبية نداء الشيخ، وخارقة بذلك عتمة وسكون ليل قرية الشيخ حليب. بعد ان تمكنت قوات الادميرال كويمي من السيطرة على مصوع. عاش الحاكم العام المصري عزت بيك حالة نفسية سيئة من جراء قدرة الايطاليين من الاستيلاء على مدينة مصوع. الا ان احد قادة الجيش الايطالي وهو الكولونيل ساليئا لم يكن مهتما بما وصلت اليه الحالة النفسية للحاكم المصري، فبادر بمحاصرته، ولم يكن من الحاكم سوى القيام بجمع من تبقى له من الجند وبعض الموظفين لمواجهة الكولونيل لكن دون اي جدوى. وعندما احس بعدم القدرة في مواجهة القوات الايطالية التي كانت تحاصر مقره والتي كان يبلغ تعدادها حوالي الثلاث ألف جندي، وهو عدد كبير قياسا لما كان يملكه من جند، أختار اللقاء بالكولونيل والتفاوض معه على امل اعادة الامور مجددا لسيطرته. واثناء اللقاء قال للكولونيل الايطالي المنتصر:-

- انكم تقومون بالتعدى على املاكنا التي اهداها لنا مولانا الخليفة العثماني أمير المؤمنين. انني وبإسم حكومتي اطلب منكم اخلاء المدينة وسحب قواتكم والعودة بها الى الاماكن التي اتت منها، وذلك حقنا للدماء، وتفاديا للخسائر.

فلم يكن الكولونيل مضطرا لمجارة الحاكم العام المصري، اذ انه كان يدرك تماما بان الاستيلاء على مصوع والسيطرة عليها ما هو سوى البداية لتحقيق الحلم الايطالي الكبير بتكوين وايجاد مستعمرة خاصة بهم في منطقة البحر الاحمر والقرن الافريقي.

كان الكولونيل جنديا مخلصا لبلده ايطاليا وحكومتها، وكان راغبا مثله مثل كل القادة الايطاليين في القيام بعمل ما يمكن ايطاليا من منافسة اقرانها من الفرنسيين

والبريطانيين في عموم المنطقة. وكان ينطلق في تحليله للامور وتطوراتها من منظور استراتيجي يصب في مصلحة تحقيق حلم ايطاليا في تكوين مستعمرة خاصة بها مثلها مثل القوى العظمى التي ظهرت كقوى بديلة للامبراطوريات القديمة البرتغالية والتركية في منتصف القرن التاسع عشر. بينما لم يكن عزت بيك سوى موظفا في امبراطورية ضعيفة سرعان ما بدأت تفقد مناطق نفوذها في شبه الجزيرة العربية على ايدي البريطانيين، ومجاهدي المهديّة فيما كان يعرف بالسودان.

لم يعر الكولونيل ساليّتا اي اهتمام بمطالب الحاكم المصري، بل على العكس من ذلك اصدر اوامره لقواته بالتقدم لإحتلال المزيد من الاراضي والسيطرة عليها، وعدم الاكتفاء بالتمركز في مصوع. ولم يمضي اكثر من عشرة ايام حتى تمكنت القوات الايطالية من السيطرة على قرية الشيخ حليب.

بدأ قلق المواطنين في قرية الشيخ حليب يزداد شيئا فشيئا. فهم وحتى وان لم يلاحظوا اي انتهاكات بحقهم من قبل الايطاليين، الا انهم كانوا يرون وبأم اعيينهم قيام قوات الكولونيل ساليّتا بالاستيلاء على المزيد من اراضيهم الزراعية. بالاضافة لحالة الحصار الذي كانوا يعانونه من جراء فرض حظر التجول على عموم المناطق. وبدأ بعض المبشرين الذين كانوا يتواجدون في المنطقة بالتعاطف مع المواطنين، وتقدير قلقهم من جراء انتشار القوات الايطالية على اراضيهم، وحرمان قطعانهم من الرعي فيها. وكان لا بد للمبشرين من ابلاغ الكولونيل ساليّتا بما يعاني منه الاهالي من قلق، ومطالبته بوضع حلول للمشاكل التي يعانون منها. والواقع لم يكن تعاطف المبشرين نتاج لحبهم وتقديرهم لسكان المنطقة، بقدر ما كان خطة محكمة تدخل في اطار تهدئة المواطنين. فهم كانوا يتعاطفون مع القادمين الجدد اكثر من تعاطفهم مع السكان المحليين وذلك لاعتبارات عرقية ووطنية. فهم حتى لو كان في اوساطهم بعض المبشرين من السويد والنرويج ومن

جنسيات اخرى، فانهم كايطاليين ويعتقون المذهب الكاثوليكي اولا واخيرا كانوا، يريدون انتصار ايطاليا على الترك، والعرب وحتى على سكان المنطقة .

قام الكولونيل ساليئا وفقا لنصيحة المبشرين الايطاليين بابلاغ الاميرال كويمي بما يحس به مواطني قرية الشيخ حليب. وعلى الفور تجاوب الاميرال مع ماطلبه المبشرون، وطلب عقد لقاء يتم بينه وبين زعماء ومشائخ القرية للتحدث حول الاوضاع العامة التي تعنى الطرفين. وبالمقابل قبل المواطنون للقاء، وعلى الفور شكلوا وفدا مكونا من ثلاث اشخاص وهم الشيخ محمد صالح جابر من قرية الشيخ حليب، والشيخ عبدالله ضرار من قرية ود زبير، والشيخ زوي عمريت من قرية حلطو للقاء بالاميرال.

قام ممثلو سكان المنطقة بارتداء اجمل ماكانوا يملكونه من الملابس، وهذبوا لحاهم وشواربهم، وتعطروا بالعود والصندل املا في الظهور بالمظهر الحسن اثناء لقاءهم بالاميرال الايطالي. ولم يطل انتظارهم اذ تم عقد الاجتماع بينهم وبين الاميرال كيمي على ظهر احدى البواخر الحربية التي كانت ترسو على رصيف ميناء مصوع. وقد استقبلهم الاميرال وبرفقته العديد من ضباط الباخرة الحربية ومن بينهم الكولونيل ساليئا بالترحاب، وقدم لهم مالذ وطاب من المؤكولات التي كانت تخر بها مخازن الباخرة الحربية الايطالية. وقد راعى الاميرال ان لا تحتوى المواد المقدمة الى ممثلي السكان على لحم الخنزير، والمشروبات الكحولية. وقد كانت هذه لفتة ذكية من الاميرال كان لها التقدير الكبير في اوساط سكان المنطقة. ان الاميرال لم يقدم على مثل هذه الخطوة الا لوعيه وادراكه بان ممثلي القوم هم من المسلمين، وبان الاسلام يحرم على اتباعه تناول لحم الخنزير، وشرب الخمر.

طلب الاميرال الايطالي من مترجمه المصري الجنسية ويدعى نور افندي بترجمة ما سوف يقوله بالايطالية الى اللغة العربية لسكان المنطقة. واستهل حديثه

بالتعبير اولا عن اعجابه وتقديره بسكان المنطقة، واحترامه للاسلام الذي يدينون به، كدين سماوي يؤمن ويعترف بافضال اهل الكتاب من النصارى واليهود. ليدخل بعد ذلك في اساس المقصد من احتلالهم للمنطقة قائلا:-

- كلفتني حكومتي للسيطرة على منطقتكم. اننا سوف نقوم برفع علمنا الايطالي مؤقتا بجانب العلم المصري. واننا اصدرنا الاوامر لقواتنا بان تقوم بحمايتكم من اي مخاطر محتملة. واننا نتعهد امامكم بتقديم كل ما تطلبوه منا. انني امد يد الصداقة لكم، راجيا ان نكون اصدقاء اوفياء لبعضنا البعض.

تنفس وفد اهالى القرى الصعداء. فهم لم يتوقعوا ان يستقبلهم الادميرال الذي كان يرتدي بدلته العسكرية الرسمية المنصعة بالعديد من الاوسمة والنياشين بحفاوة بالغة. ولولا اصرار سكان المنطقة لما اختاروا الذهاب الى مهمة مخوفة بالمخاطر للقاء الادميرال على ظهر باخرة ترسو على رصيف ميناء المدينة.

لم يكن وفد السكان يعرف الحكمة ولا القصد من وراء طلب الايطاليين للقاء بهم. فكل واحد منهم كانت له تصورات الخاصة به. فالشيخ عبدالله ضرار وبطييعته المتوجسة كان يخشى الاجانب، ولم يحدث ان صادف يوما رجل منهم. وكل الذي كان يسمعه عن الفرنجة هو "انهم قساة القلوب، ولا يؤمن لهم". كان يخشى ان يقوم الادميرال كومي باعتقالهم ونفيهم الى اماكن لا يستطيع فيها اهاليهم معرفة مصيرهم. اما الشيخ زبوي عمريت وباعتبار انه كان من تلامذة الشيخ عبد الباقي البصير وتلقى تعاليم القرآن الكريم، والحديث النبوي، والسنة الشريفة على يديه في قرية حلحلو التي لاتبعد عن قرية الشيخ حليب سوى سبعة كيلومترا، وتأثر الى ابعد الحدود به، فإنه لم يكن يخشى سوى ان يقوم الادميرال بمحاولة فرض التنصير عليهم. اما الشيخ محمد صالح جابر الذي اخبر زوجته السيدة ملوك، وهو يتأهب مع اقاربه لمقابلة الايطاليين بأنه يؤمن:-

- بأن الخير والشر هو بيد الله. ولا يمكن ان يصيبنا شئ إلا بإذنه تعالى.
ولم يكن منزعجا مثل اقرانه، وكان همه ينصب في كيفية ابقاء اهله وسكان قريته
في مأمن من شرور ومكائد القادمين الجدد. وقد قام من نومه مبكرا في صبيحة
يوم اللقاء، وادى صلاة الفجر في زاوية القرية، ورفع يديه عاليا للسماء داعيا:-
- اللهم يسر ولا تعسر علينا، واجعل لنا مخرجا. فإذا كان الطليان يريدون بنا
شرا فاللهم ابعدهم عنا، اما اذا ارادو منا خيرا وفقنا فيما لا يغضبك.

لم يكن الادميرال الايطالي صادقا فيما كان يدعيه. ولم يدرك الشيخ محمد صالح
بان الايطاليين لا يريدون لهم الخير إلا بعد فوات الاوان. فالادميرال لم يأتي كما
ادعى للدفاع عن اصحاب المنطقة وحمايتهم، ولم يرجوا صداقة اهل المنطقة،
بقدر ما كان يقوم بتنفيذ سياسة حكومته للإستيلاء على مزيد من الاراضي واحكام
السيطرة عليها، تمهيدا لبناء مستعمرة استيطانية خاصة بايطاليا في منطقة غرب
البحر الاحمر والقرن الافريقي. وتحقيقا لذلك وفي العاشر من ابريل من عام
1885م تمكنت القوات الايطالية من احتلال منطقة أرافلي والاستيلاء عليها. وفي
21 أبريل من نفس العام تم الاستيلاء على قرية حرقيقو، وفي الثامن والرابع
والعشرين من يونيو تم السيطرة على جزر دهلك الكبير، ومنطقة سحايط
بالتوالي. وفي الثاني من ديسمبر من عام 1885م تمكن الايطاليون من السيطرة
على مصوع وطرد الحاكم المصري عزت بيك منها، وانزال العلم المصري
واستبداله بالعلم الايطالي.

يتذكر سكان قرية الشيخ حليب خاصة كبار السن منهم في جلسات السمر التي
عادة ماكانت تتم في الليالي المقمرة، وهم يفترشون حبات الرمل المنتشرة في ساحة
ميدان المنطقة، حالة المعاناة التي مرت بهم، خاصة في الفترة التي تمكن فيها
المبشر الإيطالي جوسيبو سابيتو من شراء قطعة الارض بالقرب من منطقة
عصب. فقد كان سكان المنطقة يكتونون من ناحية بنيران حملات أمراء الحرب

التجراويين، وعلى رأسهم الرأس ألولاً أبا نقا الذي قام بغزو أراضي الساهو في يوليو من عام 1885م، وأراضي الحباب في فبراير من عام 1886م، وارتكب فيها العديد من المجازر بحق السكان. ومن ناحية ثانية كانوا يعانون من سياسات التوسع الإيطالية. وكان الشيخ محمد صالح جابر يردد عادة أمام زوجته كل ما تذكر ممارسات التجراويين قائلاً:-

- ان الامبراطور يوهنس امبراطور مقاطعة التجراي جمع ذات يوم كبار اعوانه ومساعديه من اقطاعي تجراي، وقال لهم " لقد حلمت بان الله قد وهبني القدرة على حكم اراضي وسكان المناطق المحاذية للبحر مثل أراضي وسكان الحماسين، والبغوص، والكوناما، والبازا. واذا ما تحقق حلمي هذا واصبح حقيقة قائمة فانني سوف اتمكن من السيطرة على التجارة من وإلى ميناء مصوع".

لم يحلم الإمبراطور يوهنس بالاستيلاء على أراضي سكان المنطقة والتحكم بها فقط. فالشيخ محمد صالح جابر يستذكر امام زوجته تلك الفترة ليقول:-

- عندما شعر الامبراطور يوهنس في العام 1884م بأن الإدارة المصرية عاجزة عن إدارة اراضيها، ارسل بعض من اعوانه وجواسيسه لدراسة طبيعة المنطقة تمهيدا لغزوها. إلا ان تمكن الايطاليون من السيطرة عمليا على مصوع في العام 1885م، حطم تماما احلام الإمبراطور يوهنس وإقطاعي التجراي.

ويضيف الشيخ خاصة عندما وجد تفهما من زوجته السيدة ملوك قائلاً:-

- ان تهديد زعماء الحبشة لنا لم يتوقف حتى عندما قتل يوهنس في 10 مارس من العام 1889م في المتمة في الحرب ضد القوات المهدية، بل ازدادت خطورة تلك التهديدات خاصة بظهور ملك الأمهرا منليك الثاني. فهذا الملك الذي تحول فيما بعد امبراطورا يحكم الشعوب التي كونت

الامبراطورية الاثيوبية بالحديد والنار، كان يتحالف او يسعى للتحالف مع الايطاليين بهدف التغلب على منافسيه من ملوك الحبشة، خاصة التجراويين منهم. وقد كان يبعث برسله الى ملوك الفرنجة، خاصة الملك إمبرتو ملك ايطاليا، طالبا مساعدتهم، والاعتراف به ملكا على عموم المنطقة التي شكلت فيما بعد بما يعرف بالامبراطورية الاثيوبية، وقد تمكن اخيرا من الحصول على مساعداتهم العسكرية والمالية، خاصة من قبل ملك ايطاليا، في مقابل ان يقوم الملك منليك بإضطهاد بعض زعماء المنطقة المقاومين للوجود الاستعماري الايطالي، من امثال الدقيات أبرأ زعيم قرية سعزقا، والدقيات محراي وغيرهم، وتسليمهم للظليان.

(4)

وجد الايطاليون الفرصة سانحة للزحف على مدري بحري (ارتريا) واخضاعها لاحتلالهم. فقد كانت اوضاع الاتراك العثمانيين في غاية الانحطاط. وضاق سكان البلاد من حملات الغزو لكل من الرأس الولا، وهو احد امراء حرب امبراطور التجراي، الامبراطور يوهنس الثاني من ناحية، وغزوات القوات المهدية خاصة في المناطق الغربية من مدري بحري (ارتريا) من ناحية اخرى. وكان البديل امام زعماء المنطقة البحث عن مساعدة خارجية. وهذا ماوفره الطليان لحسابات سياسية واستراتيجية خاصة بهم.

كان الاعتقاد السائد للعديد من زعماء السكان بان الحصول على مساعدة خارجية سوف يدفع عنهم ما يتعرضون له من تحديات سواء من قبل جيرانهم او من قبل الاقربون منهم. وكالعادة كان النقاش بين الشيخ محمد صالح جابر وحرمة السيدة ملوك عبدالقادر، يتناول الاحداث التي مرت بها منطقتهم، وذات مساء وبينما الشيخ مستلقيا بادرت السيدة ملوك بطرح السؤال التالي على الشيخ:-

- كيف وبأي الطرق تمكن الطليان من كسب ود وصدقة زعمائنا؟.

اخذ الشيخ محمد صالح جابر نفسا عميقا كإشارة منه على عدم الرغبة في الخوض في النقاش. إلا انه رأى الاصرار باديا على وجه زوجته للحصول على الايجابية. فلم يكن له من بد سوى الرد قائلا:-

- لم يكن هناك اي اتفاق او تنسيق بين مختلف الزعماء، وكان كل منهم يبحث وبطريقته الخاصة عن الطريقة التي تمكنه من كسب ود وصدقة الايطاليين. وهكذا وبشكل تدريجي بدأ التأثير الايطالي ونفوذه في التمدد في العديد من المناطق التي عرفت فيما بعد بالمستعمرة الايطالية.

ويضيف الشيخ لمحدثته السيدة ملوك وهو يروي احداث تلك الفترة قائلا:-

- اختار زعماء السكان التحالف مع الايطاليين لاسباب خارجة عن ارادتهم، فلم تكن لديهم القدرة على التصدي لحملة امراء التجري وذلك نتيجة لحالة التنافر التي كانت قائمة في اوساطهم، ومن ناحية ثانية كانوا يعانون من حالة المجاعة الشهيرة التي ضربت عموم المنطقة لحوالي اربع سنوات 1888-1892 ، وكان الحل المائل امامهم للخروج من النكبات التي اعترتهم، وكل حسب طريقته، هو التقرب من الايطاليين وكسب ودهم. إلا ان ذلك التحالف لم يدم طويلا اذ سرعان مافض أولئك الزعماء صداقاتهم مع الايطاليين، وتحولوا خلال بضع سنوات الى مقاومين بل معادين للوجود الاستعماري الايطالي. وقد كانوا يبررون طلب التحالف مع الايطاليين او كسب ودهم وصداقتهم، بانهم كانوا يعانون كثيرا من غزوات امراء التجري ومن المجاعة، ولم تكن لهم الحيلة للمواجهة الا عبر التحالف مع الطليان وكسب ودهم، و ...

وقبل ان يسترسل قاطعته السيدة ملوك طارحة عليه سؤالا مباشرا، بقولها:-

- وماذا كان المقابل بالنسبة للطليان؟

فرد الشيخ:-

- كان الطليان ينقسمون فيما بينهم فيما يتعلق بالعلاقة مع مواطني المنطقة. فمنهم من كان ينظر لمدري بحري (ارتريا) وشعبها بنوع من التعالي والخطرة. والبعض كان يرى ضرورة تعزيز التواجد الايطالي عبر خلق علاقات وطيدة بالمواطنين. اما السيؤون منهم فانهم كانوا لا ينسون ان يصفوا البلاد، بالارض التي تكثر فيها شتى انواع الامراض، كالكوليرا والامراض الجلدية، وبالارض الرملية والصخرية التي لا حياة فيها، والتي تحرم الانسان من كل شئ. وان شعبها تهيم عليه البداوة ولا يحب العمل. وعلى عكس ذلك كان المناوؤون لهؤلاء يصفون البلاد بانها صالحة للعيش،

وبها الامكانيات التي لا يمكن الاستهانة بها في مجال الزراعة واستغلال الثروات البحرية والمعدنية والسياحية.

واضاف قائلاً:-

- ومع ذلك فقد كان الطليان بصورة عامة في حوجة ماسة الى تعاطف السكان، كما انهم كانوا في حوجة لخلق قوات مقاتلة من ابناء المنطقة تستطيع القيام بمهمة حفظ الامن، وترسيخ تواجدهم الاستعماري. فأسرعوا في استغلال حوجة سكان المنطقة للغذاء، فقدموا المساعدات لدرء المجاعة. تلك المساعدة التي كان لها الدور والتأثير الكبيرين في اوساط المواطنين، الى درجة تغنت بها نساء المنطقة، واعجب بها الصغار منهم والكبار، بمن فيهم زعماء القرى ورجال الدين، خاصة بعد ان تمكن السكان ولأول مرة من التعرف على الرغيف (الايطالي) المخبوز من دقيق القمح، بعد ان كانوا يتناولون ارغفتهم التقليدية المصنوعة عادة من عجين ذرة الماشيلا. كما تمكن الطليان عبر سياسة الغذاء التي اتبعوها من تجنيد اعداد كبيرة من مواطني سكان المنطقة ليشكلوا منهم وحدات شبه عسكرية تقوم بمهمة حراسة بعض منازل ضباط الجيش الطلياني وبعض المنشآت العسكرية. وفي اكتوبر 1888م تمكن الطليان ولأول مرة من تكوين اربع كتائب من ابناء المنطقة تعمل ضمن اطار الجيش الطلياني. بالاضافة الى ذلك، فقد تمكن الطليان بفضل سياسة الاعتماد على الغذاء كسلاح فاعل من تجنيد المزيد من المواطنين في الجيش الايطالي. وكانت احدى نتائج تلك السياسة تمكنهم في العام 1889م وبدعم قتالي من بعض الزعماء وعلى رأسهم البرمبراس كافل الذي كان يرأس اكثر من ألفين من المقاتلين المحليين، من احتلال منطقة كرن التي كانت خاضعة للاحتلال المصري. الا ان نتائج تلك السياسة لم تدم طويلا كما توقعها الطليان، اذ قام عليهم البرمبراس

كافل ليعلم تمردده وشق عصا الطاعة عليهم. وعلى الرغم من ذلك تمكن
الطليان بعد ان تم لهم الاستيلاء على منطقة كرن، من الاستيلاء في الثاني
والثالث من اغسطس 1889م على منطقة أسمر وكافة المناطق المحيطة
بها. وليقوم ملك الطليان الملك إمبرتو في يناير 1890م بإصدار مرسومه
المشهور الذي يعلن فيه عن "تأسيس مستعمرة إرتريا"، بالإضافة الى تعيين
الجنرال أوريرو أول حاكم ايطالي على المستعمرة.

كان الشيخ محمد صالح جابر كثير الانزعاج من حالة التناحر بين زعماء القبائل
سواء في منطقته، او المناطق الاخرى من مدري بحري. وفي احدى الامسيات
وبينما هو يتبادل الحديث مع جمع من اصدقائه حدثت مشادة كلامية بين كل من
الشيخ عبدالله ضرار والشيخ زوي عمريت حول اهمية او عدم اهمية طلب زعماء
المنطقة للدعم الخارجي. اذ وقف الشيخ منتصبا بشكل مفاجئ موجهها كلامه
للشيخين قائلاً:-

- ان ما نتحدثون عنه لا اهمية له. اذ ان الذي حدث قد حدث، وانني ارى ان
نستخلص العبر من المكائيدات التي لا طائل منها. وعلينا تحكيم العقل من
اجل تحقيق مصالحنا المشتركة.

كان الشيخ والعديد من اقرانه يعززون تمكن الايطاليين من احتلال مناطقهم لعاملين
اساسيين. العامل الاول حسب تقديرهم كان يعود، لاستمرار الخلاف والتناحر
الداخلي بين مختلف القبائل والذي كان يأخذ في كثير من الاحيان طابعه الدموي.
بالاضافة الى استمرار الصراع من اجل بسط الهيمنة والنفوذ على المنطقة، والذي
كان يتم وبالتناوب ما بين المصريين وحكام التجري، وبين التجري والمصريين
والقوات المهدية من جانب، وبين الاهالي وبين القوى الخارجية المصرية والتجراوية
والسودانية المهدية من جانب آخر. اما العامل الثاني فكان يعزى لعامل قساوة
الطبيعة الذي كان يفسره الاهالي وكأنه عذاب مرسل من الله لمعاينة الناس على

الخطايا التي كانوا يرتكبونها، نتيجة لعدم الرحمة فيما بينهم ومكايده بعضهم البعض، وعدم مساعدة الضعفاء منهم.

بعد ان تمكن الايطاليون من السيطرة على عموم المنطقة، بدأو بتدعيم تواجدهم فيما اطلقوا عليها "مستعمرة إرتريا الايطالية". ولأول مرة يتحول الاهالي الى مواطنين تابعين للدولة الايطالية، وتتنقي منهم الخصوصية القبائلية التي كانوا يفتخرون بها، وبهذا الخصوص يقول الشيخ :-

- انتفت منا الصفات الخاصة التي كنا نتمتع بها. ولم نعد نحل قضايانا وخلافاتنا بالاسلوب الذي ثوارثناه عن اجدادنا وآبائنا، بل فرض علينا ان نقدم مظلما، وخلافاتنا وشكاوينا الى محكمة المدينة التي يترأسها قاضي طلياني، او احد ابناء المنطقة المحسوبين على الطليان. ولم نعد نوبخ المخطئ منا ونفرض عليه ما يستحقه من عقاب، بل اجبر المذنب منا لإنهاء عقوبته في مكان مظلم حفر في باطن الارض يقوم بحراسته بعض من ابنائنا الذين يخدمون مع الطليان اطلقوا عليه تسمية سجن المدينة. وفرض علينا الطليان الالتحاق بالجيش للعمل فيه كخدم في اوقات السلم، وكمحاربين أشداء اثناء غزو البلدان البعيدة عنا.

ويضيف قائلاً:-

- وعلى الرغم من وجود بعضا من الذين يتحلون بصفات الرحمة من الايطاليين، ويساعدون الناس خاصة في حالات حدوث المجاعات، فإن الكثيرين خاصة الاداريون والضباط والمنتسبون في الجيش، فانهم كانوا عديمي الرحمة ولا يسعون الى مساعدة المحتاجين، يقدر ما يقومون بالاهتمام بإقامة الحفلات البانخة، وسهرات الرقص الماجنة في النوادي والساحات.

هذا ما كان يقوله ويردده كبار السن لأبنائهم من الشباب، وكان الشيخ محمد صالح جابر احدهم اذ ما برح وهو يردد مثل هذا الكلام على مسامع ابنه إدريس. كان احد اهداف المستعمر الايطالي هو تحويل "مستعمرته" الى منطقة يتم فيها توطين اهالي ايطاليا من الجنوبيين الذين كانوا يقومون بالتمرد على حكومتهم المركزية واعلان العصيان عليها، وذلك للعديد من المنازعات في ملكية الارض. وكان التفكير الايطالي الرسمي منصبا في كيفية توطين أولئك المتمردين في اراضي "المستعمرة" بهدف التخلص من الاشكالات التي كانوا يسببونها لروما. وعندما يستذكر الشيخ محمد بقصة التوطين لا يتمالك نفسه، ويعتصره الألم عندما يسترجع ما قاله الجنرال بالدسيرا الذي قاد قواته للاستيلاء على اسمر اذ قال:-

- ان الارض التي تمكنا من السيطرة عليها هي اراضي تابعة للحكومة الايطالية.

لقد كان الشيخ وفي كثير من الاحيان ينتفض ويتمنى لو لم يسمع او يتعرف على الايطاليين، فهو لم يتصور ان يقوم القادمون الجدد بالاستيلاء على اراضي قريته، وازاضي اقرانه من ابناء المنطقة لصالح ابناء جنوب ايطاليا. وقد تألم كثيرا عندما علم بان السنيور فرانشيسكو كيريسيبي وهو الذي خدم بلاده كرئيس للوزراء في الفترة 1889-1896م قد قال في احدى خطبه امام البرلمان الايطالي في الخامس من شهر مارس 1890م، "بان عملية توطين الايطاليين في ارتريا هو حجر الزاوية للسياسة الايطالية".

وبناء على سياسة التوطين تلك التي تبناها رئيس الوزراء الايطالي، وصادق عليها البرلمان، بدأ العديد من الفلاحين الايطاليين وبعض الافراد من الطبقة الرأسمالية منذ الثالث عشر من مايو 1890م بالتوجه الى المستعمرة التي اطلق عليها "مستعمرة ارتريا الايطالية".

ومنذ البداية قام الايطاليون بالاستيلاء على الاراضي التي استولى عليها الرأس ألولاً وتحويلها الى ملكية الحكومة الايطالية. وفي 19 يونيو 1890م شكل البرلمان الايطالي مفوضية خاصة تكون مهمتها الاشراف على عملية توطين الايطاليين في الاراضي المستولى عليها، وعين السنيور ليوبولدو فرانكتي مسؤولاً عنها، ليتم في نهاية العام 1890م تأسيس اول مستوطنة زراعية بالقرب من العاصمة.

وعلى الرغم من معارضة بعض الاحزاب السياسية الايطالية (الاحزاب العمالية، والتقدمية) لسياسة مصادرة الاراضي التي تبنتها الحكومة الايطالية بصورة رسمية. وبهذا الخصوص فقد كان الشيخ محمد صالح جابر، يصر على اصدقائه وعلى راسهم الشيخ زويي عمريت، اثناء اثاره مسألة الارض قائلاً:-

- ان الطليان كانوا يصادرون العديد من اراضيها التي توارثتها جيل بعد آخر وذلك تحت حجج مختلفة مثل أحقية الطليان في الحصول على اراضي السكان، والادعاء بعدم قدرة المواطنين من القيام باستثمار اراضيهم.

ويضيف الشيخ ايضا والمرارة بادية عليه:-

- ان الطليان وبشكل خاص رئيسهم كانوا يدفعون منذ البداية (عام 1893م) بل ويشجعون العديد من التجار الطليان للاستيلاء على اراضيها وتحويلها لصالحهم، بل بدؤوا بسن القوانين التي تساعدهم على الاستمرار في الاستيلاء على الاراضي والسيطرة عليها، ومنع المواطنين من العودة الى اراضيهم او المطالبة بها. ووفقا لهذه السياسة والاصرار على تطبيقها ارسل رئيس الوزراء الايطالي كريسبي في 28 أبريل 1894م رسالة الى الحاكم الايطالي "لمستعمرة إرتريا الايطالية" يحثه فيها على "ضرورة التمسك بسياسة المصادرة، وعدم التردد في تطبيقها، والسعي بالتخلي بالصبر في حالة حدوث عوائق تحيل دون تنفيذ سياستنا الاستيطانية".

لم تمهل الايام حسب ماكان يقوله الشيخ محمد صالح جابر المستعمر الايطالي، فهو يقول موجهها كلامه لابنه البكر:-

- فشلت سياسة مصادرة الارض، وانشاء مستعمرات زراعية خاصة بالتجار. ويعود السبب في ذلك وبدرجة اساسية الى حالة التمرد والعصيان التي كان يقوم بها الناس المدفوعين من زعمائهم المحليين ومن ابرزهم الدقيات بهتا حقوص، بالاضافة الى العديد من العوامل الداخلية الطليانية الراضة لسياسة مصادرة الارض خاصة من قبل الاحزاب المعارضة للحكومة الطليانية (حكومة ألسنيور كريسبي). وفي 20 فبراير عام 1895م لم يكن للطلين من بد سوى ايقاف سياسة التوطين، وحل المفوضية التي كان يرأسها ألسنيور ليوبولدو فرانكتي المعنية بتوطين المزارعين الطليان وكبار التجار.

لم يكن إدريس الإبن البكر للشيخ محمد يفقه ما يرويه والده من سياسة مصادرة الارض ... التوطين ... والايطاليين نظرا لصغر سنه اذ لم يكن قد بلغ الثانية عشر من عمره، وقصر مداركه. وكل همه كان منصبا في كيفية إجادة لعبة "البيب" و "أقرشبع" التي كان يمارسها الشباب وصغار السن بهدف التفوق على أقرانه، والتباهي امام والده واعمامه. إلا ان ادريس ومن ناحية ثانية كانت تستهويه الحكايات الشعبية التي كانت ترويها له جدته حليلة عمر مثل حكاية "الراعي والغنم والذئب" و "حكاية سهيل الذي كان يبحث عن خطيبته التي اختطفها عملاء بائعي الرقيق". وكان شديد الاعجاب بجسارة "سهيل" في مقاومة الاشرار من مختطفي الاطفال، التي كانت تسردها جدته بشكل خرافي يختطف اهتماماته كل مساء بعد صلاة العشاء وهو مستلقي على الفراش المصنوع من سعف الدوم او النخيل المفروش على ارضية البيت.

كان إدريس ومن خلال إمتزاج نفسيته ببطولات "سهيل" الذي كان يرمز بالنسبة له للشجاعة والاقدام، وركوب المخاطر لإنقاذ خطيبته، لا يتردد في تقديم الاسئلة التي كانت تتجاوز سنه وقدرته، عندما يأتي ذكر مقاومة البرمبراس كافل، والكنتياي حامد، والدقيات بهتا حقوص لسياسة المستعمر الايطالي خاصة تلك المتعلقة بمصادرة الارض، وتوطين المهاجرين الايطاليين من أبناء جزيرة صقلية والجزر المحيطة بها.

بالاضافة الى ذلك فقد كان إدريس عاجزا ايضا عن ادراك كيف ولماذا كان الناس وزعمائهم يرفعون ألوية العصيان على المستعمر الايطالي:-

- لم نلجأ الى العصيان إلا نتيجة لمصادرة الارض التي توارثناها عن الاجداد. فالارض بالنسبة لنا هي الحياة، منها نللم ارزاقنا، ومنها نؤكد على انتمائنا، وبها نرفع هاماتنا، وعليها نحيا ونموت.

هذه الايجابية العميقة المضمون والمعنى التي كان يرددها الشيخ محمد صالح جابر كإيجابية على تساؤلات ابنه ادريس، لم تكن تعنى اي شئى او تكفي، بل لم تكن حتى بقادرة على إسكات تساؤلات إدريس النابعة من عقله الصغير. ومع ذلك كان مهتما لمعرفة المزيد عن زعماء المقاومة والاساليب التي يتبعونها، وهل يتحلون بالشجاعة والاقدام كما يتحلى بها بطله "سهيل":-

- تحالف الكثير من زعماء القبائل وللعديد من الاسباب مع الطليان. الا انهم وبعد ان شعروا بان الطلياني ينوي مصادرة اراضيهم وتحويلها لصالح ابناء جلدته، لم يكن بمقدورهم سوى اعلان التمرد والعصيان. فالبعض منهم كانت مقاومته سلبية مثل زعيم الحباب كنتياي حامد الذي فضل ترك دياره واملاكه ليستقر ويكون مجتمعا صغيرا خاصا به في شرق السودان. اما البعض الآخر فقد حمل السلاح وواجه الطلياني. ففي غرب البلاد كانت هناك مقاومة كل من زماج ود أكد، ومحمد أرودا، ودمبر آغا حيث كانوا

ينصبون الكمائن لجند الطليان وينزلون بهم اكبر الخسائر. وفي المرتفعات كان كل من كنتيبيا قرنكئيل زي قودايف، والبرمبراس يلما كافل، والدقيات أبراء، والدقيات بهتا حقوص، وابوبكر محمد نوري، والدقيات محراي وغيرهم، يشكلون بعصيانهم الارق الحقيقي للطليان. وفي شرق البلاد هبت قبائل المنطقة (العفر) بزعامة المقاوم الشهير على محمد عثمان بوري، والسلطان ياسين حيسما، ودخلت في اشتباكات مسلحة ضد العديد من البعثات الاستكشافية الايطالية التي كانت تجوب البلاد.

هذا السرد التاريخي للشيخ كان يخلق في الطفل ذو الاثني عشر ربيعا نوعا من الارتياح المصحوب بشعور الرضى والتمازج مع خيالاته التي كان يصنعها اثناء تخيل بطله المحبب "سهيل". ومن ناحية ثانية كان يدفع بإدريس لمعرفة المزيد والمزيد من اساطير زعماء القبائل.

- وماذا بعد ؟ هل نجح هؤلاء في انزال الهزيمة بالطليان ؟ ولماذا إنتكست اعلامهم، ولم نعد نسمع الكثير عنهم ؟.

تساؤلات مصحوبة بنوع من القلق لم تكن تراود الطفل إدريس وحسب، بل كانت تغطي على العديد من سكان المنطقة بما فيهم كبار السن. وكالعادة كان الجواب يكمن في ذاكرة الشيخ محمد صالح جابر اذ كان يقول في محاولة منه للإجابة على تلك التساؤلات:-

- لم يتمكن كل أولئك من احراز النصر على الطليان. فهم لم يكونوا موحدين في المواجهة، اذ كان كل واحد منهم يسعى الى كسب الفوز على الطليان لمصلحة قبيلته دون اي اعتبار لجهد ومقاومة الآخرين. بالاضافة الى خيانة العديد من ابناء المنطقة الذين إنطلت عليهم حيلة الطليان. واعتقدوا بان مصيرهم ومصير قومهم مرتبط بالطليان الذين كانوا يقدمون لهم المؤونة والعون خاصة في زمن المجاعة الكبرى. بل كان البعض يطمح في

المناصب التي يقدمها الطليان، والبعض الآخر يستزرق منهم خاصة أولئك المنخرطين في سلك الجندية، وبعض ممن نصبهم الطليان زعماء ومشائخ وعمد للعديد من قبائل المنطقة.

تلك الحقائق لم تريح الطفل إدريس، بل كان في قرارة نفسه يود ان لا يسمع بهما. اذ كان يعتقد بان ذلك يصطدم بشكل مباشر بالهالة التي خلقها لبطله "سهيل". وكان يتمنى لو امكن لذلك البطل المعروف باسم "سهيل" تقديم المساعدة لأولئك الزعماء في مواجهتهم للمحتل الايطالي. ولم يكن إدريس يفكر اكثر من ذلك ليعود في ممارسة لهوه البريئ مع اقرانه ابناء قرية الشيخ حليب.

(5)

اتضح تماما لأهالي قرية الشيخ حليب إخفاق وفشل كافة طموحات تأسيس امبراطورية روما الجديدة التي كان يحلم بها حكام إيطاليا في ذلك العهد. وذلك بعد ان شاهدو بأمر أعينهم كيف تمت هزيمة "سياسة التوطين بفضل المقاومة الشجاعة لأهالي المنطقة، وفشل "سياسة التوسع" الهادفة الى احتلال منطقة القرن الأفريقي، خاصة احتلال المملكة المجاورة التي اقامها الملك منليك، والنتائج الوخيمة "لمعركة عدوا" الشهيرة التي انهزم فيها الجيش الايطالي في العام 1896م على يد القبائل التي جمعها منليك. وكان مخرج الايطاليين الوحيد هو مراجعة كافة الحسابات والخطط القديمة، وتبني سياسات جديدة تمكن وعلى أقل تقدير، للمحافظة على الوضع الايطالي البائس سواء داخل ايطاليا او في المستعمرات الايطالية في افريقيا.

بالمقابل كان اهالي قرية الشيخ حليب غير مهتمين كثيرا لما جرى لإيطاليا، وكان همهم ينصب في كيفية الخروج من حالة الارياك من جراء السياسات الايطالية التي كثيرا ما عانوا منها، وبشكل خاص تلك المرتبطة بمسألة مصادرة الاراضي. ومع ذلك كانوا يطرحون التفسيرات الخاصة بهم بين الحين والآخر حول الاسباب والنتائج التي ادت الى هزيمة ايطاليا على ايدي قوات منليك. ولم يترك الشيخ محمد صالح جابر عاداته المفضلة في اقامة الامسيات الساهرة في داره في ليالي الخريف التي يجتمع فيها اصحابه وأقربائه ليناقدوا طبيعة الاوضاع التي تمر بهم وهم يحتسون فناجين القهوة. وفي احدى تلك الامسيات التي كان فيها الشيخ مجتمعا فيها مع اقاربه وهو منشرح البال نتيجة لهطول القليل من زخات المطر التي بالكاد روت ارض المنطقة والتي يمكن ان تساعد في إنبات الحشائش، وتفتح الازهار البرية التي تغطي مساحة لا بأس بها من قرية الشيخ حليب، بادر الشيخ زوي عمريت وهو احد اصدقاء الشيخ محمد صالح بالحديث قائلا:-

- أتذكرون كيف قام الطليان بالتنازل ولو مؤقتا عن تبني سياسة اخضاع القبائل بالقوة المسلحة، وقيامهم بتعيين اول حاكم مدني علينا في ديسمبر من عام 1897م وهو السنيور الطيب القلب فردناندو مارتيني الذي قام بالاتصال بنا وبزعماء المنطقة التقليديين، طالبا منا نسيان الماضي والتفكير بالمستقبل الزاهر الذي يمكن ان يتحقق من خلال التعاون بين الاهالي والاطليان. وكيف قام الطليان باصدار عفو عام عن أولئك الذين كانوا يحاربون حكم الطليان وبشكل خاص الدقيات بهتا حقوص واتباعه.

لم يكمل الشيخ زويي عمريت كلامه اذ قاطعه الشيخ محمد صالح جابر قائلا:-

- لم تكن التغييرات التي قام بها الطليان الا نتيجة لشعورهم بالهزيمة المريرة التي اصيبوا بها على ايدي قوات الملك منليك، وعمليات المقاومة التي كنا نقوم بها، وليس حبا فينا. وان تلك التغييرات التي نتحدث عنها خاصة تعيين حاكم مدني علينا لم يكن سوى نتيجة للهزائم والمعارضة الداخلية التي منيت بها حكومة السنيور كريسبي. وهي في الواقع تهدف الى تغيير الممارسات السابقة للاطليان دون المساس بالرغبة في السيطرة على منطقتنا. واستبدال الصورة القبيحة للاطلياني بصورة جديدة يمكن ان تحظى بقبولنا وتعاطفنا.

على الرغم من محدودية وقصر مدارك اهالي قرية الشيخ حليب، الا انهم كانوا يتفهمون الاسباب التي ادت الى الانحطاط الذي حل بالمستعمر الايطالي. فهم كانوا يعززون ذلك، لسياسات التوسع والسيطرة بقوة الحديد والنار التي كانت تتبعها حكومة رئيس وزراء ايطاليا السنيور كريسبي في ذلك العهد. وكان من الطبيعي، ومن اجل الاستمرار لتحقيق الحلم الايطالي بتكوين "مستعمرة خاصة بهم تحقق مصالحهم السياسية والاقتصادية" اللجوء الى تبني سياسات جديدة، مثلما حاول الشيخ زويي عمريت توضيحه، مثل تعزيز الوضع السياسي والاقتصادي في

المستعمرة، والابتعاد عن كل ما يثير الاهالي سواء فيما يتعلق بمصادرة الاراضي والاستيلاء عليها، او ممارسة سياسة، القبضة الحديدية، والتقرب قدر الامكان الى سكان المنطقة للحصول على تأييدهم وموافقتهم.

وكان اول شئ قام به المستعمر الايطالي هو السعي الى رسم الحدود الجغرافية لمستعمرته التي اطلق عليها تسمية "مستعمرة ارتريا الايطالية". فقام بالاتصال بالبريطانيين الذين كانوا بدورهم يستعمرون السودان واتفق معهم في الخامس من ابريل 1891م بترسيم الحدود⁽¹⁾. ليتم تحقيق ذلك في الاعوام 1898-1907، وتأخذ تلك الاتفاقيات شكلها النهائي التي تبين الحدود السياسية المعترف بها بين السودان و "مستعمرة ارتريا الايطالية" في العام 1907م. وبنفس المستوى تمكن الايطاليون من الإتفاق مع امبراطور أثيوبيا منليك ليتم رسم الحدود السياسية الجنوبية بين مملكة اثيوبيا و "مستعمرة ارتريا الايطالية" في 15 مايو 1902م، وليسحب ذلك الاتفاق، عقد اتفاق جديد مع الامبراطور مكن من رسم الحدود السياسية في منطقة دنكاليا في 16 مايو 1908م، وليعترف الامبراطور بالاملاك الايطالية في "المستعمرة". وهكذا ومنذ العام 1898م وحتى منتصف العام 1908م تمكن المستعمر الايطالي من خلق "مستعمرة ارتريا الايطالية" التي نالت الاعتراف السياسي والقانوني من قبل دول الجوار، ولتكون اول مستعمرة ايطالية ذات الحدود السياسية الواضحة في حوض البحر الاحمر، ومنطقة القرن الافريقي.

اما الهدف الثاني الذي قام به المستعمر الايطالي وكان الفضل في تحقيقه يعود للسنيور فرديناندو مارتيني الذي كان يصفه الاهالي "بالسنيور الطيب القلب" هو الابتعاد بل الغاء، سياسة مصادرة الاراضي، واستبدال تلك السياسة بسياسة احداث

(1) رسمت الحدود الإترتية - السودانية بمقتضى خمسة معاهدات وهي:

- معاهدة 7 ديسمبر 1898م
- معاهدة 1 يونيو 1899م
- معاهدة 16 ابريل 1901م
- معاهدة 22 نوفمبر 1901م
- معاهدة 19 ديسمبر 1907م

تحول اقتصادي رأسمالي تمكن من جلب العمالة المحلية التي تضطرها ظروف العمل الى هجر اراضيها. والقيام بالمشاريع ذات الطابع الاقتصادي الرأسمالي التي تمكن من الاستفادة من المواد الخام، واتباع سياسة الحذر اثناء تطبيق سياسة توطين الايطاليين. ووضع برنامج واسع يمكن من إلحاق اكبر عدد ممكن من الاهالي في الجيش الايطالي.

اما الهدف الثالث فقد تمثل في مواصلة الجهد لترسيم الحدود الجغرافية المتبقية "لمستعمرة ارتريا الايطالية". فقد تمكن الايطاليون والفرنسيون بموجب معاهدة 24 يناير 1900م ومعاهدة 10 يونيو 1901م من ترسيم الحدود بين "مستعمرة ارتريا الايطالية" و "المستعمرة الفرنسية" المعروفة بجيبوتي.

لم تكن التغييرات التي احدثها المستعمر الايطالي تهدف الى تحسين الوضع الاقتصادي - الاجتماعي للمواطنين، بقدر ماكانت من اجل تحقيق المصالح الايطالية بصورة افضل عبر وضع الاهداف والبرامج التي تمكن من احداث تطوير اقتصادي يخدم في المحصلة النهائية المصلحة الايطالية العليا. ولتحقيق ذلك باشر الايطاليون في تطوير البنية التحتية مثل الاسراع بإكمال مشروع خط سكة الحديد الذي بدأ في العام 1887م، وشق الطرقات وتعبيدها، وانشاء الموانئ العصرية وتوسعتها، بالاضافة الى تشييد المصانع ذات الاغراض المتعددة، وبناء المدن الحديثة وإقامة المشاريع الزراعية ذات الطابع الرأسمالي.

(6)

كان ابن الشيخ محمد صالح جابر البكر إدريس يتعجب كيف امكن مد قضبان الحديد على طول الطريق الذي يؤدي من منطقته ليصل الى اعلى قمة الجبل

المحاذي لمنطقة أسمر. وكان اكثر ما يلفت نظره هو كيف وبأي الوسائل امكن وضع عربة كبيرة تجر وراءها العديد من المقطورات على القضبان الحديدية تلك وهي تحمل مختلف المواد التي تجلبها البواخر الايطالية من البحر الكبير. وكان يعتقد في قرارة نفسه بوجود سر ما يجر او يدفع تلك العربة الكبيرة، خاصة عندما كان يشاهد عربة القطار وهي تزمجر وتنفث مخلفات الفحم الحجري، ورزاز بخار الماء المتصاعد من جنباتها. لكنه لم يكن بالقادر لتفسير ذلك السر الذي كان يشغل باله:-

- كيف وبأي الطرق يتم دفع تلك العربة الكبيرة؟

هذا السؤال الذي كان يحيره ما برح وان طرحه لوالده الشيخ الذي اكد له:-

- ان العربة الكبيرة وحسب ملاحظتي تتدفع بفعل ما يقدم لها من الفحم الذي يرميه لها السائق الطلياني، ليحترق ويدفع بعربة القطار للسير بشكل مرضي، وان سر هذا الفحم وقوته لا يعلمه الا الخالق الجبار.

لم يكن إدريس يكتفي بالاجابة التي اعطاه اياه والده، بل كان يريد معرفة الكثير من التفاصيل مثل:-

- إذا كيف تم صنع تلك العربةية ؟ وكيف تم ايضا تجهيز تلك القضبان؟ ومن الذي قام بفرشها على طول الطريق الذي يوصل الى أسمر؟.

فلم يكن للشيخ سوى سرد قصة كيف تم إنشاء خط سكة الحديد قائلا:-

- لا ادري كيف تم صنع تلك العربة، وكيف امكن تجهيز تلك القضبان. ربما صنعها امهر العمال الطليان. وان الذي استطيع التحدث حوله، هو اننا وضمن واقع التغييرات التي اجراها الطليان، انخرط العديد من ابناء قريتنا والعديد من ابناء القرى الاخرى في العمل في مختلف المشاريع التي اقيمت. وكان نصيبي العمل في مشروع سكة الحديد الذي كان يجري فيه العمل من شروق الشمس وحتى غروبها. لقد كان عملا شاقا لا يمكن ان يقوم به سوى

الشباب ذوي البنية الجسدية الفائقة، اذ انه كان عملا يحتاج الى جهد عضلي جبار. كان عملنا نحن الذين كلفنا بهذا العمل وكان عددنا يفوق الخمسين شخصا منصبا في حمل قضبان الحديد التي تأتي بها بواخر الطليان وفرشها على جانبي الطريق الذي يمهدده عمال آخرون، والقيام بربط كل قضيب بصواميل كبيرة بالقضيب الموازي له. كان الواحد منا يتقاضى من هذا العمل الشاق مبلغ زهيد لا يتجاوز حفنة من الليرات الطليانية بعد الانتهاء من عقد العمل الذي يبرم بيننا وبين اصحاب المشروع الطليان، مع قطعتي خبر ايطالي وكأس من الشاهي تقدم لنا يوميا الاولي في الصباح الباكر، والثانية بعد العودة الى معسكرات الصفيح التي اقامها لنا الطليان لقضاء الليل فيها.

لم يكن إدريس يتعجب ويفتخر بان والده كان يشارك في ذلك العمل الاسطوري، ويرفع بيديه القويتين قضبان الحديد ليفرشها على الطريق فقط، بل كان يطالب وبالحاج شديد معرفة المزيد من طبيعة ذلك العمل. وكيف كان الآباء قادرين على التفاهم مع الايطاليين لتنفيذ ذلك المشروع:-

- كان العمل شاقا بطبيعته، ولم يكن يسمح لنا بأخذ قسط من الراحة، بل كنا نطالب من قبل مراقبي العمال الطليان بالاسراع بجلب قضبان الحديد وفرشها على الطريق، ومن ثم تثبيتها على الاخشاب الضخمة المغروسة على الطريق، وفي حالة التلكأ او ظهور الارهاق علينا كان المراقبون يلوحون لنا بالكرابيج او العصي التي يحملونها في ايديهم للإستمرار في العمل، وتكون حصتنا المكافأة بضرية كراج أو وخزة عصا.

هذا ماكان يجيب به الشيخ محمد صالح جابر لإرواء عطش إبنه في معرفة تطورات مسيرة بناء خط سكة الحديد.

كان الشيخ فخورا بإشتراكه في بناء ما كان يعرف بإحدى مفخرة الايطاليين. وكان يردد عندما يتذكر كيف كان يعمل في مشروع خط سكة الحديد بعد ان ترك مهنة النجارة، قائلا:-

- ان بناء ذلك الخط الحديدي مكننا من معرفة العديد من مناطق بلادنا التي كنا نعرفها فقط عبر ما كان يسرده لنا آباءنا، فنحن في السابق لم نكن نعرف سوى المنطقة التي نعيش فيها، وفي احسن الحالات لم نكن نسمع سوى ببعض المناطق المحيطة بنا التي لا تبعد ابعدا عنا باكثر من مسافة نصف يوم مشيا على الاقدام. ان السفر في زماننا كان عبارة عن قطعة من النار كما كان يعتقد آباؤنا واجدادنا. فعندما كنت أسافر على سبيل المثال الى قرية ود زبير التي لا تبعد اكثر من ثمانية كيلومترات عن منطقتنا لزيارة اخوالي، كانت والدتي تحلق شعر رأسي، وتقوم بغسل الملابس التي يجب ان ارتديها والتي لم تكن تتجاوز السروال والجلابية وطاقيه الرأس التي صنعتها جدتي. ويكون جميعنا والدي ووالدتي وجدتي في حالة استنفار قصوى الى ان يحين يوم السفر. وعند الوصول الى قرية اخوالي تقوم جدتي من امي باعطائي قطعة من البصل المبشور ظنا منها بان ذلك يساعد في طرد الارواح الشريرة التي رافقتني في الطريق، ويقيني ايضا من الاصابة بالانفلونزا.

ويضيف الشيخ مستذكرا انطباعاته:-

- كان القطار ينطلق من المحطة الواقعة بالقرب من شاطئ البحر بعد شروق الشمس وبعد تناول قهوة الصباح مباشرة، مارا بالعديد من القرى ذات المروج الخلابة التي لم نكن نتصورها. ويتسلق الجبال الشاهقة المكسوة بالعديد من الاشجار الباسقة دون ان يعبئ بها كما كانت تفعل انثى الاسد اثناء عملية الصيد وهي تلوي عنق الحمار الوحشي برشاقة، لتحوله في لحظة وجيزة الى

وجبة دسمة لاسرتها. وينحدر القطار من تلك الجبال ليقطع في برهة من الزمن سهول منبسطة تجود بساكنيها في ايام الخريف بالعديد من المحاصيل مثل الشعير والقمح والدخن، والذرة بكافة انواعها، ليصعد مجددا العديد من الجبال الشاهقة، ليصل الى اسمرا في منتصف النهار. لا يكفي القطار بالتوقف في اسمرا، فبعد استراحة ساعتين، يواصل طريقه وهو محملا بالعديد من اصناف البضائع، لينطلق من جديد منحدرًا الى السهول الغربية ليصل الى كرن ومن ثم الى حاضرة بركة اغوردات خلال اربع ساعات. انه قطار عملاق بكل مقاييس ذلك الزمان، انه حيوان ضخيم يتحمل اكثر مما يتحمله ألف جمل دفعة واحدة. ويفرغ بعضا من شحنته في كل منطقة او مدينة او قرية يصلها الى ان يصل مدينة اغورات. لا يكفي القطار بذلك بل يحمل ايضا دون ان يحس باي ارهاق، ما تجود به مختلف المناطق من محاصيل زراعية، والعديد من المواشي والدواجن وهو في طريق عودته الى مصوع مارا بكل من كرن واسمرا، وقندع والعديد من القرى المعلقة بالجبال، وتلك التي تتبسط في السهول الغربية والشرقية. بالاضافة الى ذلك فانه كان يحمل المسافرين سواء لزيارة اقاربهم واحبائهم، او لشراء بعض المؤن من مختلف المناطق.

كان الشيخ معجبا بالدور الذي لعبه القطار في توصيل مناطق البلاد بعضها ببعض فهو يقول:-

- على الرغم من سياسة التفرقة التي كان يمارسها بحقنا الطليان خاصة في الايام الاوائل، الا ان الطليان كان لهم الفضل الكبير في خلق هذا المارد الضخم المسمى بالقطار. لقد كان للقطار الذي ادخل الى مناطقنا الفضل الكبير فمنا كنا نسترزق، وعبره ايضا تمكنا من معرفة العديد من مناطقنا، وبه تم الفضل في بناء والتنام العديد من مدننا وقرانا. وامتزجت عبره العديد

من ثقافات قبائلنا، كما انتشرت عبره عادات وتقاليد طليانية لم تكن معروفة لدينا. واصبحنا بفضل ذلك الامتزاج بين بعضنا البعض، او بيننا وبين الطليان اصحاب شأن في تكوين أنفسنا. لم يكن الطليان بالمقصرين في تنفيذ ذلك المشروع الضخم، فهم وبالتأكيد ومن اجل تحقيق مصالحهم الخاصة صرفوا كميات كبيرة من الاموال، وقدموا الجهد المتفاني، واستفادوا كثيرا من عرقنا بل ودمائنا لبناء وانجاز ذلك الطريق الحديدي. وكانوا ينوون توصيل مشروعهم ذلك الى الاراضي الاثيوبية، والعديد من المناطق الشرقية في السودان، بهدف ايجاد مستعمرة كبرى خاصة بهم.

عاش الشيخ محمد صالح جابر والعديد من أقرانه في عموم المنطقة في الفترة من 1845-1920م حالة من الاستقرار والسكينة. فقد وفرت لهم برامج التنمية التي قام بها الايطاليون فرص العمل للأكثرية، واستتب الامن وماعاد الناس يخشون على حياتهم واموالهم. الى درجة ان العديد من المواطنين خاصة كبار السن منهم كانوا يصفون تلك الفترة:-

- بالفرصة الذهبية التي لا يمكن ان تتكرر.

كان الشيخ يقارن تلك الحالة بما كان يعيشه هو وأسرته قبل عشرة سنوات، ويحمد ربه على جزيل النعم التي منحها له ولأهله، ويقول وهو يخاطب ذاته:-

- كنا نعيش افضل ايامنا دون ان نشعر بالاحباط. فقد تحسن مستوى المعيشة، ولم نكن نعاني من عدم وجود فرص العمل. بل كان الطليان هم الذين كانوا يعانون من ندرة العمالة، ويقدمون الحوافز والاعراضات للإلتحاق باحدى المشاريع خاصة تلك التي كانت تتطلب الجهد العضلي. لقد كان الواحد منا يبذل عمله كما يبذل قميصه دون اي عناء ودون الخوف من المجهول. ويعود لأهله في مساء كل يوم وهو محمل بالمواد الغذائية من رغيف ايطالي الى قرطاس مملوء بالسكر، وآخر مملوء بحب الشاهي،

وقارورة زيت، واخرى مليئة بالجازولين، وبكمية لا بأس منها من الاسماك الطازجة وبعض الخضروات من بصل، وطماطم وغيره، بالاضافة الى التمباك او بعض السجائر للوليفين منا. كنا نعود الى منطقتنا مساء كل يوم قبل غروب الشمس، وكل واحد منا يحمل ما تيسر له من دخل. كنا نحس بالاطمئنان وبالسعادة الغامرة عندما تطأ اقدامنا ارض القرية، وما ان يصل احدنا الى باب داره حتى يفرح به اطفاله ويلتمون حوله على امل الحصول على بعض الحلوى، وكلمات الثناء والمحبة.

ويضيف الشيخ وهو في غاية الانشراح:-

- لم يكن لي من بد سوى احتضان اطفالي، ومسح رؤوسهم بيدي اليمنى، ومن ثم التوجه الى كبار السن من اعمامي واخواني واخواتي للسلام عليهم واخذ رضاهم. وما ان ننتهى من اداء صلاة المغرب حتى يجتمع شمل أسرتنا ونتناول وجبة العشاء، ونتبادل الاحاديث العذبة وبعض الاحيان النكات المرححة حتى ينام اطفالنا، ونتوضأ ويأمننا من هو اكبر منا سنا لنؤدي صلاة العشاء جماعة، ويذهب كل منا الى سريره، بما فيهم انا بعد ان اصطحب معي ام الاولاد، ونؤدي ماتمليه علينا العلاقات الزوجية لنغرق بعد ذلك في نوم عميق لا نفيق منه الا على صياح ديك الجيران.

لم يدم الحال بأسرة الشيخ ففي احدى ايام فصل صيف عام 1921م توفى راعيها، واحد أعيان المنطقة عن عمر يناهز السابعة والسبعين. لقد كانت وفاة الشيخ محمد صالح جابر مفاجئة وصدمة عنيفة للأسرة وللعديد من ابناء القرية. فقد كان محبوبا ويحظى باحترام الكبار والصغار على حد سواء. وكانت كلمته كأحد شيوخ المنطقة، واحد زعمائها، والمتحدث الرسمي امام السلطات الحاكمة، تكاد الحكم الفيصل في كل ما يتعلق بسكان المنطقة.

لم يحدث وان عانى الشيخ من اي مرض عضال بإستثناء اصابته بحمى الملاريا بين الحين والآخرى. والتي كان يتخلص منها في العادة كبقية سكان المنطقة خلال ثلاث او اربعة ايام وذلك عبر تناول العلاج البلدي الذي لم يكن يتجاوز استخدام بعض الاعشاب المحلية التي تزرع بها سهول المنطقة، والتي لم يكن يعرفها سوى كبار السن وبشكل خاص النساء، او "الاولياء الصالحين" حسب اعتقادات اهل المنطقة. تلك الاعشاب التي كانوا يخلطونها ويعجنونها بقليل من زيت السمسم، مع القليل من حبة السوداء. وكان الشيخ بالاضافة الى تناول مثل هذا العلاج فانه وحرصا منه على طرد الارواح الشريرة التي تحملها البعوضة المسببة للملاريا في احشائها، كان يربط بعض الاحجبة في ذراعه الايمن. الا انه وفي صيف ذلك العام لم يتمكن من مقاومة تلك الحمى، ولم يعد العلاج البلدي يجدي معه نفعا. وسرعان ما بدأت حالته الصحية بالتدهور، واخذ يهذي الى درجة انه كان يعجز من التعرف على زواره. وبعد اسبوع من الزمن فارق الحياة وسلم الروح الى بارئها.

لم يرزق الشيخ سوى بابنين اكبرهم ادريس واصغرهم أحمد الذي كان يناهز التاسعة او العاشرة من العمر في احسن تقدير عندما توفى الشيخ. ولم يكن الشيخ يملك ثروة تذكر بإستثناء بعض من رؤس الماعز والخراف، وحوالي اربعة بقرات حلوب كانت توفر بعض احتياجات الاسرة من الالبان. بالاضافة الى امتلاكه لمزرعة لا

تتجاوز مساحتها الربع هكتار، وبيتا شبيها بأبيات المنطقة يستظل به هو واسرته الصغيرة سبق وان ورثه عن والده.

على الرغم من الألم الذي اعتصر سكان القرية ب وفاة الشيخ فقد كانوا مؤمنين بالقدر، ممتثلين لمشيئة الله. كانوا يؤمنون بحق "باليوم المحتوم" ويرددون مقولة:-

- ان الانسان خلق من تراب ليعود اليه مجددا.

ولم يبدر من اي منهم علامات الاعتراض "على ما اراده الله سبحانه وتعالى". فعندما بلغ نبأ وفاة الشيخ مواطني القرية، تسارع كبار القوم في الصباح الباكر على التوافد على بيت الشيخ والقيام بما يمليه عليهم الواجب من غسل للجثمان وتعطيره وتكفينه، واسرعوا في مواراة جثمان الشيخ بتراب مقبرة قرية الشيخ حليب قبل ان تستفحل مرارة شمس الصيف الحارقة لتلك البقعة من بقاع ارتريا.

في اكتوبر 1922 تمكن الحزب الفاشي الايطالي من السيطرة على نظام الحكم في ايطاليا. وبعد ثلاث عشر عاما من وفاة الشيخ محمد صالح جابر اي في اكتوبر من عام 1935م اصدر ديكتاتور ايطاليا بونيتو موسليني اوامره لغزو اثيوبيا مستفيدا من البنية التحتية في ارتريا والصومال. ولم تعر ايطاليا الفاشية اي اعتبار للنداءات الداخلية والخارجية المتعددة التي كانت تحثها بالكف عن غزو اثيوبيا. كما لم تتورع من اجل تحقيق مصالحها الاستعمارية من استخدام كافة انواع الاسلحة التي كانت تزدهم بها مستودعاتها، بما فيها استخدام الغازات السامة ضد المواطنين العزل خاصة ضد الاطفال والنساء في غزوها لاثيوبيا.

وامام تلك الهجمة الفاشية لم يقف الارتريون مكتوفي الايدي تجاه ما تعرض له جيرانهم الاثيوبيين. فقد كان معظمهم بما فيهم بالطبع سكان قرية الشيخ حليب يرفضون الحملة العسكرية الايطالية التي كانوا يسمونها بحرب العام 1935م الموجهة لغزو اثيوبيا واستباحة اراضيها وسكانها. ويقول الشيخ زبوي عمريت وهو احد اصدقاء الشيخ محمد صالح جابر بهذا الصدد:-

- كان واجب الجيرة وعلاقات المصالح المشتركة تفرض علينا ليس التضامن مع جيراننا الاثيوبيين، بل كان العديد منا يقدم المعلومات المتوافرة حول تحرك الجيش الطلياني، ونوايا الحكومة الطليانية للاثيوبيين. فقد قدم قبرهويت إدموند وهو احد الارتريين الراضين للسياسة الفاشية العديد من الوثائق الهامة التي تفضح النوايا العدوانية للحكومة الطليانية للاثيوبيين. واعلن العديد من العاملين في الجيش الطلياني الذين اجبروا للاشتراك في الحملة العسكرية الطليانية التمرد على الطليان، ورفض تنفيذ الاوامر بالقيام بالاشتراك في الحملة العسكرية. بل قام اكثر من تسعمائة جندي ارتري كانوا يرابطون في الصومال بالفرار من معسكرات الطليان والالتحاق بالجيش الاثيوبي. واعلن اكثر من مائة جندي ارتري كانوا يأترون بالشمباش تسفاسيون عندوم عصيانهم على الطليان والالتحاق بالمقاومة الاثيوبية.

ويضيف الشيخ زبوي عمريت:-

- لم تكن كل انواع المعارضة بالقادة على الحد من كبح جماح الرغبة الطليانية الفاشية في السيطرة على اثيوبيا. ففي المعركة التي دارت رحاها بين الطليان والاثيوبيين في منطقة ماي جو في 31 مارس عام 1936م انهزم الجيش الاثيوبي وفر الامبراطور هيلي سيلاسي الى الخارج. لتتمكن في النهاية جحافل الفاشيست من الدخول الى اديس ابابا في الخامس من مايو 1936م والسيطرة عليها. واعلن الديكتاتور الايطالي في التاسع من نفس الشهر عن تشكيل "إمبراطورية إيطاليا الشرق افريقية".

وعلى الرغم من تمكن ايطاليا الفاشية من السيطرة واحتلال الاراضي الاثيوبية، وتكوين ما عرف "بامبراطورية ايطاليا الشرق افريقية" التي ضمت كل من ارتريا والصومال واثيوبيا، الا انها وكنتيجة للعديد من الاسباب ومن ابرزها ازدياد مقاومة

الاهالي المسلحة، لم تتمكن ايطاليا الفاشية من بسط نفوذها والتأكيد على هيمنتها بشكل تام في عموم المنطقة.

والواقع لم تكتف ايطاليا الفاشية بتبني سياسات استخدام العنف لتأكيد سيطرتها، بل ايضا تبنت وفقا لما يرويه الشيخ زوي عمريت:-

- لم تستخدم ايطاليا الفاشية سياسة العنف فقط، بل كانت تتبنى سياسة التفرقة العنصرية ضد سكان المنطقة دون استثناء. ووفقا لتلك السياسة صدرت العديد من القوانين الفاشية السيئة السمعة، مثل اصدار قانون عدم الاختلاط، وقانون عدم الزواج والسكن المشترك، وحتى عدم استخدام وسائل مواصلات مشتركة بين طائفة الطليان ذوي البشرة البيضاء، وطائفة المواطنين ذوي البشرة السوداء.

مع تمكن ايطاليا الفاشية من تأسيس "امبراطورية ايطاليا الشرق افريقية"، خسرت قرية ود الزبير وعموم المنطقة احد ابنائها، وذلك بوفاة الشيخ زوي عمريت في نوفمبر من عام 1937م عن عمر يناهز الثمانون عاما. وقد كان الشيخ زوي عمريت الذي يصغر الشيخ محمد صالح جابر بحوالي إثني عشر عاما، احد اقرب واصغر اصدقاء الشيخ محمد المقربون، وخاضا معا معارك الحياة.

لم يعاني الشيخ زوي عمريت من اي مرض عضال مثله مثل صديقه الشيخ محمد جابر صالح، وكان حتى اواخر ايامه يعتمد على نفسه بصورة مطلقة، وكان يذهب الى المسجد لتلبية واجباته وفروضاته الدينية، كما كان يحضر مناسبات الافراح والمآتم سواء في قريته او القرى المجاورة دون مساعدة اي احد. وكان شخصا محبوبا يحظى باحترام كل المواطنين، خاصة احترام وتقدير اسرته الصغيرة المكونة من ولدين وهما إسماعيل وصالح، وإبنتين هما زينب وسعدية.

ولم يمض الوقت طويلا حتى ظهرت العديد من التطورات التي ادت الى ظهور تبدلات عنيفة ذات طابع تنافسي بين الدول الاوروبية لتنفجر بينهما الحرب التي

عرفت "بالحرب العالمية الثانية" ، وتكون النتيجة سقوط ايطاليا الفاشية مهزومة في تلك الحرب في العام 1941م، ولتدخل شعوب منطقة القرن الافريقي منعطفًا تاريخيًا جديدًا.